تذاكر الأحلام

بسم الله الرحمن الرحيم

عبدالعزيز آل زايد

تذاكر الأحلام

كنوز المعرفة

دار كنوز المعرفة
للنشر والتوزيع

الأردن ـ عمان ـ وسط البلد ـ شارع
الملك حسين ـ مقابل بنك الإسكان
+962 6 4655877
+962 79 5525494
712577 عمان
dar_konoz@yahoo.com
info@darkonoz.com
www.darkonoz.com

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2021/9/5370)

آل زايد ، عبدالعزيز

تذاكر الأحلام / عبدالعزيز آل زايد .– عمان : دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠٢١

(١٦٨) ص، قياس القطع ٥ر١٤x٥ر٢١ سم

ر.إ.: ٢٠٢١/٩/٥٣٧٠

الواصفات: /الرواية العربية/ /الأدب العربي/ /العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتب الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

9 789923 490037

الطبعة الأولى
1443هـ ≈ 2022م

جميع الحقوق الملكية والفكرية محفوظة، ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنفيذ الكتاب كاملا أو مجزءا أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على كمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطي

إهداء

إلى زهور الأحلام
التي تعشق الندى

عبدالعزيز
ahzaid@hotmail.com

يهدى الكتاب إلى: .....

.....

الباب

1

الفصل الأول

(١)

غَزَالَةُ المُرُوْج

يُقَلّب صفحات الكتب، ويلتهم سطورها بنهم، لا يترك سطرًا إلا حَشّاه بالمفيد، إما تعليقًا أو تدقيقًا أو إضافةً أو نقدًا، هضم الكثير مما قاله السّابقون الفطاحل، وانتخب من العلوم الأجود، تَعَمّد أن يَمْتَهِن هذه الحِرْفة التّي راقت له، وهي أن يَظَلّ باقي حياته بائعًا للكتب، مكتبته رغم صغرها النّسبيّ إلا أنّهَا مفهرسة بدقة، ويَفِد عليها كلّ من أراد أن ينتشق أزهار العلماء ويَشُمّ بساتين العارفين والفلاسفة، الفلاسفة هنا بيوتهم، وهنا مهبط وحيهم، وهنا مرفأهُم وَمَرْسَاهُم، العديد من الكتب تستند على أَرْفُفٍ متجاورة تقول للعيون: «تَمَلّي مني فلديّ الكثير لأمنحه، واقتربي مني فعندي ما لا يُتَوقع»، ظَلّ ساهمًا يبحر في السطور، فلا يرفع عيونه عن الكتاب إلا لحاجة سائل، أحيانًا يفيق على جلبة حركة الباب التّي تشي بدخول زائر جديد، يُقْرَع الجرس مؤذنًا بقدوم زبون، فيرفع رأسه ليرى أنّ القادم لم يكن زائرًا كما توقع، إنّمَا الإيقاع يعزف لمقدم زائرة، لم تكن هذه الزّائرة كبقية الزّائرين، فقدومها كان له

وقع شديد على قلبه، إذ فتّق نحوها المشاعر والأحاسيس، أخذ قلبه يتغنّى من شِدّة الحُمّى التّي أصابته منها، فدمدم في سره:

وَزَائِرَتي كَأنّ بهَا حَيَاءً فَلَيسَ تَزُورُ إلاّ في الظّلامِ
بَذَلْتُ لهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ في عِظامي

قال في نفسه: «هل كان المتنبّي يقصد بأبياته هذه الحُمّى؟، أم حسناء رمَته بدائها وانسلتْ؟»، مرقت الغزالة كنسمة هبتْ من فوق مرج أخضر، لتنظر إلى عناوين الكتب التّي تراصّت متجاورة كنمارق مصفوفة، تناولت أحد الكتب، وهو يتأمل دلالها ورِقّة أهدابها التّي جذبته نحوها، رغم نهمه بالكتاب الذي يفترس محتواه، خطفه ناحيّة هذه الظّبيّة الحالمة مغناطيس ما يجهله، تناغم مع كيمياء سحرها الأنثويّ فتسارع منه النبض إلى مباهج حدائقها، لا يدري كيف تسللت إليه حكمة قديمة حفظها عن جان جاك روسو؟، فتمتم بها في خاطره وهو يُقَلّب صفحات الكتاب دون أن يرفع عنها نظره: «الحُبّ قد ابتدعته النّساء؛ ليسمح لهذا الجنس الضّعيف أن يسيطر، بينما قد خُلِقَ ليذعن وينقاد»، لم يعجبها الكتاب، فقفزت كفراشة إلى زهرة ثانية وثالثة ورابعة، قال في نفسه مُتَقَمّصًا مقولة لفولتير: «المرأة كدوّارة الرّياح لا تهدأ

إلا حينما تصدأ»، ثم أكمل: «وأنّى لهذه الفاتنة أنْ تصدأ والبهجة والحياة لم تخلق إلا لها»، وأخيرًا وقع الكتاب الذّي يرضيها، لمحه من بعيد فعرف محتواه من غلافه، فلقد قرأه بأكمله، وتلى في أعماقه اسمه: (في مدحِ الحُبّ، للفيلسوف الفرنسي آلان باديو)، وتذكّر أنّه أحد مؤسّسي الحزب الاشتراكي الموحّد في فرنسا، أقبلت نحوه وهو يتمتم في نفسه دون أن تتحرك الشّفتان: «إنّهَا لحظة الخلود المرتبطة بالنّقاء والصّفاء الطّاهر الشّفيف»، غمغم في زوابعه قبل أن تمثل نجمة السّماء بين يديه: «الوقوع في الحُبّ والاستمرار فيه»، مَدّت إليه الكتاب وتعمّدت أن تلامس أصابعه لتحرقه حُمّى المتنبّي التّي تزوره ساعة الظّلام، فتذكّر مقالة لا يذكر صاحبها: (الحُبّ مغامرة عنيدة، والحُبّ الحقيقيّ هو الوحيد الذّي يفوز دومًا)، ظَنّ أنّهَا ستشتري كتابًا واحدًا لكنّهَا تراجعت فأحضرت على وجه السّرعة كتابًا آخر كالبرق، كان مؤلفاه: (أود لانسولان وماري لومونييه)، لم يقرأ هذا الكتاب من قبل، فأخذ يَتَمعّن في اختيارها ليقرأه بعد غروب القمر، حفظ العنوان جيدًا قبل أن يسلمها إياه: (الفلاسفة والحُبّ من سقراط إلى سيمون، دي بوفوار».

رفع رأسه فلم يراها أمامه، ظَنّها ستجلب له كتابًا آخرًا، ولم تجلب له سوى (الحُمّى) التّي سكنت في عظامه ولم تبارح، قال حين توثق من مغادرتها: «لعلّها نسيت محفظة نقودها»، «أو لعلّها تعود»، «أو لعلّها...»، لم يرَ لأحجيتها حلًّا، سوى أنّهَا نجحت في اقتلاع مُهجته وسيطرت على قلاع أحشائه وتمكنت من توتيد حُبّها في عرش قلبه الشاكيّ.

(٢)

زَائِرَةُ الحُمَّى

أصابتـه اللّعَنَـة مـن غيـاب غزالتـه التّـي تبخـرتْ فـي الهـواء، وشـغلته عـن مطالعـة الكتـب، ذهبت منـه شـهيّة القـراءة المجنونـة، إذ لا يُفَكّـر إلا بهـا، لا يأتيـه زائـر إلا توهمهـا، وسـرعان مـا يتبـدد الوَهْم، حَتّـى أظنـاه الانتظـار وَهَـدّهُ التّعـب، تذكّـر كتابَـي الحُـبّ اللّذيـن احضرتهمـا قبـل الغـروب، فقـرأ الأخيـر وأعـاد قـراءة الأول لأجـل ذات العيـون والشّـفَق، وبينمـا يحـاول اسـتعادة لياقـةِ القـراءة لعقلـه، جاءتـه زائـرة الحُمّـى مـن جديـد دون سـابق إنـذار، فرقـص لهـا قلبـه، وانْتَشَـتْ لأجلهـا أوراقـه، وبـدأت عروقـه تَضُـخّ بالدّمـاء، سـعى أن يقـاوم الإغـراء لأول وَهْلَـة، وأخـذ يثبّـت ناظريـه فـي الكتـاب وكأنّـه رائِـق الحـال، فلـم تفلـح مسـاعيه وعبثًـا فعـل، ولـم يَصْمُـد حَتّـى رفـع لهـا رايـة الاستسـلام.

بعـد جولـة رشـيقة منهـا بيـن الرّفـوف أحضـرت لـه (كتـاب أصـول الطّهْـي)، بفطنتـه أدرك أنّهَـا تطبخـه علـى نـار هادئـة، فقـرر فـي الحـال قرارِيـن أن يُثبّـت نظـره عليهـا حَتّـى لا تهـرب منـه، والقـرار الآخـر أن يسـألها عـن الكتابيـن المختارِيـن سـابقًا إن كانـت

ترغب بهما، سألها فلم تجبه، إنّمَا دفعت بكتاب الطّبخ نحوه ولم تتكلم، وكأنّهَا تُمْعّن في سلقه على نارها، قال لها ثمنه ونظره مُثَبّت عليها حَتّى لا تطير، من حقيبتها أخرجت المبلغ، وأخذت تَعُدّه بدلال فاتن وكأنّهَا تُقَطّع قلبه قطعة إثر قطعة، وهو لا يدري أينظر إلى المبلغ؟ أم إلى البياض الذّي يتحرك كرمشة عين نعسة؟

أخطأت العَدّ فأعادت دولبة النّقود أمامه من جديد، فلم يحتمل رِقّة أناملها وهي تداعب الأوراق، وكأنّهَا تداعب أنفاسه وتَعُدّها عليه عدًا، وجدت المبلغ ناقصًا، فخرجت لتجلب بقيّة المبلغ، وظَنّها لن تعود، وأخطأ التّوقع للمَرّة الثّانية، لكونها عادت لتُفَجّر البراكين التّي لم تُخْمَد، أعادت أمامه العَدّ وهو يرمق البياض لا الأوراق، قال في نفسه: «سأقبل منها ما في يدها، مهما كانت خسارتي»، تأكدت أنّ العَدّ صحيح وأعطته إيّاه ثُمّ رحلت لتخلف أشلاء قلبه مُحَطّمَة من فرط إيقاعها الذّي عَلِمَ حق اليقين أنّهَا لم تأتي لشراء كتاب بل لشراء قلبه وقد أفلح البيع وقرر أن يعطيها كلّ ما تتمناه.

لم تعد إليه من بعدها، ولم يهدأ له قلب وهو ينتظر زائرته التّي باع لها قلبه قبل أن يبيع لها كتاب الطّبخ، فقال في نفسه:

«لعلّها اشترت الكتاب لتطبخ قلبي في طَنْجَرَة الحُبّ كيفما تهوى»، فتساءل: «ولكنْ لماذا لم تعد؟»، ماهي إلا أيام حَتّى عادت، هذه المرّة لم تشتر شيئًا ولم تلمس كتابًا، إنّمَا مَرّت مرور الكرام ثُمّ خرجت كمن يُفتّش عن شيء ولم يجده، عَلِمَ أنّهَا لم تأتِ إلا لأجله، وحين لم يحتمل الفراق والمغادرة غادر معها وأغلق المحلّ، سار خلفها كالمَجْذوب الّذي استسلم لكلّ حتفٍ تريده منه، رمقته فلم تعبه بمتابعته لها، وهذا ما أسَرّ خاطره، دخلت دارها دون أن تعيره أيّ اهتمام، ظَنّ أنّهَا ستطل عليه من النّافذة كحوريّة غيداء، لكنّهَا لم تفعل، فلمّا طال به المقام رجع لمكتبته يُسَكّن سِياط الألم، وقال في خاطره: «لماذا جاءت هذه السّاحِرَة؟، وماذا تبتغي مني؟».

أدرك أنّ حُبّها الّذي أُشْرِبَه لم يكن سوى سُمّ لا تِرْياق له، كما أدرك أنّ قلبه واقع في قبضة أصبعين من أصابعها، تحركه كيفما تشاء، طال عليه الأمد ولم تأتِ إليه حَتّى شعر بالألم يُقَطّعُه كالمواس، والحُبّ يمضغه كما تمضغ النّاقة عشبة الصّحراء، فقال في نفسه: «إن لم أعالج قلبي سأتلف وأموت، وليس لي علاج إلا بالزّوَاج منها، وإني لفاعل»، أخذ يسأل بعض معارفه عن الحوريّة النّجلاء، فقيل له: «إنّ هذه المرأة

أرملة ولها طفلة من زوج متوفى، فما لك وللأرامل؟، ولك في الأبكار خير نصيب»، قال ودخان قلبه كالقدر الساخن: «وما يضر الأرملة إن رحل عنها زوجها؟، ثُمّ هل انتهت بها الحياة برحيل لا خيار لها فيه؟»، «كلا، إنّمَا أرى لك البكر، لا سِيّما أنّكَ في مقتبل الحياة».

(٣)

جُرْحٌ وَدَوَاء

لـم تتغيـر القناعـات مـن رأسـه، ومُنيّتـه أن يظفـر بمعشـوقته الوضحـاء التّـي أغوتـه وأغرتـه، رغـم أنّ النّـاس تعيبهـا وتعيـب خاطبهـا، ومـع ذاك فهـو لا يـرَ فيهـا أيّ عيـب، حَتّـى العيـوب أضحـت مزايـا فـي ناظريـه، كيـف لا وهـو ينظـر لهـا بعيـن الرّضـى؟، اعتـرض عليـه صاحبـه: «يـا مجنـون، إنّ لهـا طفلـة مـن غيـرك!!»، ببـرود: «أتعيـب كفالـة يتيـم؟ أو رعايـة أرملـة؟، إنّ أمنيتـي أن أكـون لليتيمـة أبًـا، وللأرملـة زوجًـا؟»، قالهـا وهـو يقـر فـي قـرارة نفسـه أنّ الإحسـان لـم يكـن لـه مطمـع؛ إنّمَـا الحُـبّ والافتتـان ممـن أوقعـت بـه؟ وأحكمـت قبضتهـا عليـه. صرفـه صاحبـه عـن هـذه المـرأة لكنّـه لـم ينصـرف وأصَـرّ، إلا أنّـه أجفـل حيـن قـال لـه صاحبـه حاسـمًا: «هـذا الـزّواج لا يكـون بـأيّ صـورة مـن الصّـور، فهـي أرملة مسـلمة، وليـس لـك فـي المسـلمات نصيـب، وأنـت المسـيحيّ القُـحّ»، هنـا أمسـك عـن الـكلام ثـم لـجّ بـه الحُـبّ وكاد أنّ ينفجـر، قـال فـي نفسـه بعـد أن جرفـه الشّـوق إليهـا: «ولمـا لا أُجَـرّب؟، فلربمـا قبلـت

بالمسيحيّ لتظفر بزوج بعد غروب القطار عنها، لا سِيّما أنّ لها طفلة تحتاج لمعيل».

قال له صديقه ليُخَفّف حِدّته معه: «لو تزوّجتها ستكن لها خير معين، فهي على مأساتها فقيرة، وإنّ الأرامل في زماننا لا يتزوّجن، رغم صغر سنهن»، تحسر وقال في نفسه: «حرام أن تُطفأ شمعة حياتها وهي لا تزال في بواكير شبابها، لماذا يبغض النّاس الأرامل؟»، تعاظم الحُبّ في صدره لها وتعمق، وذات مرّة دفعه الغرام لأن يطرق عليها بابها، وقد وضع لها مصروفًا في كتاب، ونوى أن يقدمه لها من باب الهديّة، عصف به قلبه وحبه، وأخذته الرِّعْدَة من مغامرة لا يدري ما منتهاها؟، سأل رَبّه السّلامة مما أضمر، وهو يتذكّر كلمة قرأها لأنطون بافلوفيتش تشيكوف، تقول: (إذا كان في وسعك أن تُحِبّ ففي وسعك أن تفعل أيّ شيء)، فقال في نفسه: «سأفعل أيّ شيء، مهمتي سهلة أن أعطيها الكتاب وأنصرف، لعَلّها تستفيد منه، ولعلّ المبلغ الذّي في جعبته يرفع عنها العَوَز، ورؤياها غاية المُنى»، اندفع وهو يتلو حكمة فلسفية نسي صاحبها: (الحُبّ الحقيقيّ لا يموت، الحُبّ الحقيقيّ يبقى حَتّى النّهاية!!).

بلـغ نهايـة الـدّرج، وأنفاسـه تلهـث لا يـدري هـل مـن مشـقة الصّعـود؟ أم مـن رهبـة المواجهـة والاضطـراب؟، رأى بـاب منزلهـا الأبيـض، فعشـق لونـه علـى الفـور، وتذكّـر المجنـون الـذّي يعشـق تقبيـل جـدران حبيبتـه، وقـال: «دائمًـا مـا يوجـد بعـض الجنـون فـي الحُـبّ، لكـن دائمًـا مـا يوجـد بعـض المنطـق فـي الجنـون أيضًـا»، ثـم أعقـب: «حَتّـى فـي وقتـي الحـرج لا تدعنـي فلسـفتك يا نيتشـه!»، طـرق بقبضتـه البـاب برفـق بعـد أن اسـتجمع كلّ قـواه، أعقبهـا بطـرق آخـر، وهـو يتمتـم: «كيـف فعلتهـا؟، إننـي بحـق البطـل المُحِـبّ، سـترك يـا رب!!»، فتحـت لـه غادتـه الحسـناء، فاندهشـت مـن قدومه، لكنّهَـا علمـت أنّ حُبّـه لهـا أرغمـه وجعلـه يقصدهـا رغـم كلّ شـيء، لهـذا أخفـت عنـه اندهاشـها، وسـعت لتقابلـه بأريحيـة، أدركـت أن نبـض القلبيـن أثـر فـي الأجسـاد أكثـر ممـا ينبغـي، حَتّـى تضـرج لـون الكـون بالخجـل، ابتسـمت حيـن قـال لهـا ليُـداري خجلـه مـن قدومـه المفاجـئ: «كتـابٌ جديـد يسـتهويكِ حصلـتُ عليـه مُؤخّـرًا، خَصّصتـه لـكِ»، قالهـا ثُـمّ ابتلـع ريقـه، وهـو لا يـدري لمـاذا أصيـب حلقـه بالجفـاف وكأنّـه فـي نهايـة صـوم يـوم طويـل؟، لـم تسـتتر عنـه غايـة الاسـتتار، وتسـاهلت فـي حشـمتها حيـن أمنـت الرّقيـب، وهـذا مـا عَمّـق تـودّدَه نحوهـا، تَمَنّـى أن يُطيـل معهـا المقـام، لكـنّ صفارتـه

الدّاخليّة أعلنت وقت الرّحِيل، فاعتذر و انهمر كشلالات فيكتوريا على السّلالم حَتّى لا يراه أحد!

تَلَوّنَت في عينيه الحياة، وكلّ أيامه أصبحت سعدًا، إذ لم يتذوّق لَذّة أو سعادة بحجم هذه الثّواني القصيرة التّي قضيها أمام باب ليلاه، فأعاد التّجربة، بعد أن استل من المكتبة كتابًا آخر وضع ثمنه بين طَيّات الورق، وقَدّمَه لحبيبته التّي أرخصت له ما يتمناه، فقالت له ما أطربه وأرعبه في ذات الوقت: «أدخل، فليس في الدّار إلا طفلتي الصّغيرة»، حُبّه كطوفان نوح وقلبه سفينة عملاقة تقاوم الغرق، فتحت له الباب على مصراعيه، لكنّه عوض الدّخول قال لها: «هل تقبلينّ الزّواج من هذا المسيحيّ الذّي أمامكِ؟»، صدمها بديانته التّي لم تتوقعها، فقالت له: «إنّ المسيحيّ لا يتزوج المسلمة، ولكني أقبلكَ مُحِبًّا وصديقًا»، لم يداوِ جرح كلامها الأول إلا الثّاني، لذا عرف أنّهَا تقبله بالحُبّ وترفضه بالزّواج.

الباب

1

الفصل الثاني

(٤)

هَدِيّةٌ أَخَوِيّة

أخـذت تتذكّـر جسـارته وطرقـه لبابهـا، تذكّـرتْ نبـض صدرهـا الـذّي رقـص لمجيئـه، تناولـت الكتـاب الـذّي أعطاهـا إيّـاه حيـن تعـذر عـن الدّخـول تحرجًـا، فقالـت فـي نفسـها وهـي تتنهـد: «كيـف تجاسـرت علـى دعوتـه؟، ثـم مـاذا لـو دخـل؟»، نبـض قلبهـا بِشِـدّة، ثـم قالـت وهـي تسـتمرأ تجربتهـا معـه: «لا بُـدّ أن يعـود، ولا ريـب أنّـي أعـرف كيـف أجعلـه يدخـل؟»، ثـم أخـذت تقـرأ فـي الكتـاب المهـدى مـن قبلـه، قـرأت العنـوان: (رسـائل خربـر)، بأظفارهـا أخـذت تُخَرْبِـش اسـم (خربـر)، وهـي تقـول: «مـا هـذا الاسـم الغريـب؟، ومـن صاحبـه؟، لـم يسـبق لـي أن سـمعته مـن قبـل»، أخـذت تقـرأ فـي الكتـاب، فعلمـت مـا لـم تكـن تعلـم، علمـت أنّ هـذا الكتـاب يحكـي قِصّـة فـي ثـوب رسـائل مـن قبـل (خربـر)، ومـا خربـر هـذا إلا اسـم الشّـيطان الكبيـر الـذّي يرسـل مراسـيله إلـى (الشّـيح)، وهـو ابـن أخيـه الـذّي يرغـب فـي المَشُـورة لهـلاك رجـل بريطانـيّ يُدعـى (المَرّيـض)، تأمّلـت فـي طبيعـة هـذه الرّسـائل فوجـدت أنّ هدفهـا زعزعـة الإيمـان والتّرغيـب فـي غـوص غمـار

الخطيئة، فقالت: «لماذا بعث لي بهذا الكتاب؟، هل يرغب في طردي عن الدّين؟، أم يرغب في انزلاقي معه في المعصية؟»، لم تدرك لماذا أعطاها الكتاب الذّي بدى مُتَرَدّدًا في إعطائها إيّاه؟، تفطنت إلى الملاحظات المرتبطة بالعقيدة المسيحيّة والطبيعة البشريّة، قلّبت الكتاب لتقرأ اسم المؤلف الأيرلنديّ (كليف ستيبلز لويس)، فسقط من بين الأوراق بعض النّقود لم تفطن لها ولا لسابقتها، أمسكت المبلغ ونظرت لرسائل إبليس (خربر)، فقالت: «دعوة للخطيئة، وتمويل مُقَدّم!!»، تنهدتْ زافرة وقالت: «ما غايته؟، وهل يظنني عاهرة؟»، غضبت من وقاحته ورغبته منها، فتَحَوّلت إلى لبوة شرسة مُتَنمّرة، وأسرت في حنق: «سأضع لتصرفاته حَدًّا».

بعد برهة قصيرة مسحت كلّ توهماتها حين تذكّرت ما قاله: «هل تقبلين الزّواج من هذا المسيحيّ الذّي أمامكِ؟»، قالت حينها: «لو كان ينوي الشَّرّ، لما عرض عليّ الزّواج»، دارت بها الدوائر، وتنفست: «لا ريب أنّهَا معونة منه، ولعلّ الله ساقه إليّ ليرحم به ضعفي»، ثم ما برحت تقول: «غريب أمر هذا الزّمان، المسلم القريب لا يرحم، والمسيحيّ البعيد يبالغ في رحمته!!، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، ويجعل

لمـن أمَلّـه مخرجًـا، ﴿**وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِـبُ**﴾»، تنهـدتْ ولـم ينقطـع منهـا الأمـل: «لـن أمـوت حَتّـى اسـتوفي حقـي مـن هـذه الدّنيـا»، قالتهـا ثـم أعقبـت: «وهـل لـي رزقٌ فـي الرّجَـال بعـد أبـي نَـدَى؟»، هطلـت دمعـه وهـي تتذكّـره، ثـم قلبـت صورتـه حَتّـى لا تزيـد جُـرْح الاتيـاع بذكـراه.

بعـد يومين جـرف الحُـبّ صاحـب المكتبـة إلـى حبيبتـه وهـو يصطحـب لهـا كتابًـا أودع فيـه معونـة ماليّـة، دعتـه للدّخـول وأبـى خجـلًا، ثُـمّ فتحـت الكتـاب فـرأت المبلـغ وكانـت لهـا عِـزّة نفـس، وقـد أضمـرت أن تأخـذ منـه الكتـب وتَـرُدّ إليـه المبلـغ الـذّي ينطـوي بيـن الصفحـات، أمسـكت المبلـغ بأظفارهـا المطليـة، ومَـدّت إليـه ذراعهـا العاريـة وقالـت لـه مسـتفهمة: «مـا هـذا؟»، هنـا ارتبـك ولـم يَحِـرْ جوابًـا، فقـال بعـد تلجلـج: «إنّهَـا هديّـة أخويّـة، أليـس مـن واجـب الأخ أن يُعيـن أختـه؟»، مَـدّت إليـه المبلـغ لترجعـه إليـه رافضـة، فأمسـك بيدهـا وقـال: «أرجـوكِ أن تأخذيـه، فمـا خـرج منـي لا يعـود، إن لـم يكـن لـكِ فلابنتـكِ الصّغيـرة، مـا اسـمها...؟»، «نَـدَى»، «نعـم هـي هديّـة منـي لابنتنـا نـدى»، قالهـا بِحُـبّ وهـو يتذكّـر حكمـة موليير: (مـن يُحِـبّ الشّـجرة يُحِـبّ الأغصـان)، رأت فيـه حنـان الأبـوة وَمَحَبّـة الـزّوْج، تمنـت أن يكـون لهـا زوجًـا،

لترفع الحرج، فقالت له وقد أخجلها كرمه معها: «ألن تدخل؟»، أجابها معتذرًا: «مرّة أخرى، إني في عجلة»، وبعد أيام أعاده إليّها الحُبّ والشّوق من جديد، فاصطحب كتابين الأول: (عذاب الحُبّ) للأديب الإيطاليّ (ألبرتو مورافيا) وألغمه بمبلغ لصغيرتها ندى، أما الكتاب الآخر فألغمه بمبلغ خاص لها، ولم يكن الكتاب إلا رواية: (أنا كارنينا) – للرّوسي الشّهير (ليو تولستوي)، قالت له على الفور: «إذا كان هذا المبلغ للصّغيرة، فلمن المبلغ الآخر؟»، ابتسم في وجهها في حنان وقال: «المبلغ الآخر لأم الصّغيرة، ألا تَسْتَحِقّ من تُرَبّى ندى الإكرام؟»، فتحت له الباب وقالت: «هل ستدخل؟»، وحَتّى تلزمه بما وعد، قالت: «ستنفعنا بإبدال أُسطُوانَة الغاز»، تذكّر وعده ووجدت له ذريعة لتدخله، فأفلحت في إقناعه، ودخل ليرتطم قلبه بصدره.

(٥)

ضِيَافَةُ القَمَر

تذكّر وعده ووجدت له ذريعة لتدخله، فأفلحت في إقناعه، ودخل ليرتطم قلبه بصدره، وقال: «إنّي لم اسألكِ عن اسمكِ يا...»، أجابته مختصرة: «خَوْلَة»، فدخل اسمها في قلبه دفعة واحدة واستقرّ، فقالت له على الفور: «وأنت؟»، أجابها على الفور: «دجوار»، فلمح في عينها استغراب واستصعاب لاسمه، فقال لها ليبدد وحشتها من اسمه، لتألفه: «اسمي دجوار، ويعني الصّعب أو الرّجُل الشّجَاع»، رمقته بحُبّ وقالت: «ومثلك يستحق الشّجَاعة»، أراد أن يباشر إبدال الأسطوانة الفارغة بالأخرى، فقالت له: «هل ستبدلها قبل أن نُضَيّفك؟»، قال في سرور: «خدمتكِ ضيافتي»، رغم قصر العبارة لمست منها الحُبّ والعاطفة التّي افتقدتها، فهرعت للثّلاجة، وقَطّعَت بعض الخُبْز وأفرغت فوقه اللّبَن ودفعته إليه مع الملعقة، وقالت: «وفي ضيافتك سعادتي»، احرجته كلمتها فتناول اللّبَن والخُبْز، رغم بساطة الطّبق وتحضيره، إلا أنّه استشعر فيه لَذّة تَيَقّن أنّ باعثها الحُبّ الذّي يعتمل لهذه الأرملة العزباء، انهى الطّعام

وقال عنه: «شهيّ»، ثم هرع للأسطوانة ليبدلها، وقالت له: «لماذا لم تتزوّج يا دجوار؟»، رمقها بِحُبّ، ثم انشغل بإبدال ما في يده وهو يقول: «لأنّي أحببت فتاة مسلمة، وهي ترفض أنّ أكون لها زوجًا»، لم تتوقع أن تسمع منه هذا التّصريح بِحُبّهَا والذّي حمل معه العتب لها، فقالت مُبَرّرة: «ليس الأمر بيدي، إنّ الدّين والعُرف يمنعانك من رغبتك»، فَكّ الأسطوانة الأولى ووضع الخرطوم في فتحة الثّانية وأخذ يُثَبّت القفل، ثم أعرب عما يشغل لبه، بقوله: «أولسنا مؤمنين يا خَوْلة؟، لماذا يمنع دينكِ تزويجي منكِ؟»، خجلت كيف تَرَدّ؟، فقالت: «إنّ دينيّ يُعطي الرّجُل حق القوامة، ويخشى على المرأة والأبناء من تأثير الزّوج عليهما فيدخلهما في ديانته عنوة»، ثبت الأسطوانة الجديدة بإحكام وأراد أنْ يَرُدّ عليها، لكنه سمع صوت جلبة رجل قادم يعلوا السّلالم، ارتعبت خَوْلة وارتبكت وقالت له: «إنّ هذا أخي يريد الدّخول، أرجوك اختبأ»، تكهربت الأجواء وانتقل الرعب منها إليه، وَدَلّته على مكان الاختباء، وفتحت لشقيقها الباب، وكأنّ شيئًا لم يكن، فقال وهو يتلفت يمينًا وشمالًا: «لقد بلغني أنّ رجلًا أتى لزيارتكِ، فهل هذا صحيح؟»، كان دجوار غائر العينين مضطرب الفؤاد في أسفل السّرير،

يسمع وَيَنُزّ منه العرق، فأخذ يُصَلّي للقِدّيسَة العذراء مريم في خشوع: «(مُبَارَكَة أنتِ في النّسَاء أيّتُهَا الطّوبَاويّة التّي آمَنَت. لقد صَنَعَ لكِ القَدِيرُ مُعجِزَات)»، استَمَرّ في تلاوة صلاته وهو يكاد أن يختنق من شِدّة الخوف والهلع، قالت خَوْلة: «صَدَقَ من أخبرك، فلقد دخل علينا من يصلح الغاز، كنت قد طلبتُ منك ولم تأتِ، وَظَلّ البيت فارغًا من غير غاز حَتّى أوشكنا على الهلاك من شِدّة الجُوْع»، برر لنفسه: «أنا لا أستطيع تغطية منزلين، يكفي المبلغ الذّي أعطيكِ إيّاه؛ لكِ ولابنتكِ»، خجل دجوار أن يسمع الحوار الخاص الدّائر بين الشّقيقين، وأشفق عليها؛ لكنّه في عالم يستحقُ الشّفقة أكثر منها، فقالت له خَوْلة: «إنّ المبلغ الذّي تدفعه إلينا لا يكفي لِسَدّ احتياجات أسبوع»، لم يقبل بمناقشة أخته له، وقال ليضع أمامها العراقيل ليصدّها: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾، ثم لَمّحَ لها مُحَذرًا: «والقليل خير من الحرمان»، انهى شقيقها زوبعته ثُمّ انصرفتْ العاصفة من الباب وحَلّ في المكان السّلام، انحدرت ناحية السّرير بعد أن رفعت الغطاء عنه، وهمست له برفق: «بإمكانك الخروج، فلقد وَلّى عزرائيل!»

خَجِـل مـن هـذا الموقـف، رغـم أنّهَـا المـرّة الأولـى التّـي يدخـل دارهـا، وقـال فـي شـيء مـن نَبـرة الحُـزن: «هـل تسـمحين لـي بالمغـادرة؟»، قالـت لـه: «بالطبـع لا، ألـم تسـمع حديـث أخـي للتّـو؟»، ثُـمّ أضافـت: «يبـدو أنّ هنـاك مـن رآك وأفشـى بزيارتـك»، ثـم أضافـت حَتّـى ترغبـه بالمجـيء: «إذا تَمَكّنَـت أن لا يـراك أحـد ففعـل»، ثُـمّ أضافـت: «ولعـلّ اللّيـل أهـدأ، ثُـمّ أنـي لا أنـام»، رقـص قلبـه مـن دعوتهـا، وقـال: «وكيـف لا تنامين؟»، أشـارت إلـى الطّفلـة الرّضِيعَـة التّـي لتوّهـا اسـتيقظت وأخـذت بالبـكاء، ابتسـمت وهـي تقـول: «وكيـف أنـام وهـذه تعشـق السّـهر؟»، هنـا انتفـض كالملـدوغ حينمـا أخـذت ترضعهـا أمامـه لتكبـح منهـا الصّـراخ.

(٦)

مَوَاسِمُ الأَفْرَاح

يَتَقَلّب في فراشه، وَيُجَافيه الكَرَى، كيف يخلد للنّوم؟، وفتاته تملأ كلّ فضاءات خياله، لأول مرّة يعرف اسمها، تمتم في خاطره: «خَوْلة، الظّبيّة الصّغيرة حديثة الولادة، خَوْلة الظّبيّة التّي لا تمتلك القُوّة على المشي»، أخذ يسرح بكلّ ما يعرفه عن اسمها، ويناجيها رغم البعاد: «إنّهَا كنية الحسناء، والفتاة التّي تتخايل بجمالها أثناء السّير»، «خَوْلة المُتَخَيّلة التّي تسيطر على كلّ شيء وتملكه بمخيّلتها»، ثم تذكّر سيطرتها على قلبه وجذبه إليّهَا دون أن يمتلك الكابح لمقاومتها، وكأنّه منصاع لها ومغلوب على أمره نحوها، تذكّر جُرْأتِها وشجاعتها، وَعَزّة نفسها، تذكّر كلّ ميزة فيها، النّخوَة والشّهَامَة والعواطف الجَيّاشة، تذكّر هجومها على أخيها والمدافع التّي شَنّتها عليه لتحفظه وتحفظ حقوقها منه، قاده اسمها المتميز الجذاب إلى الشّاعِرة العربيّة والفارسة الشّجَاعة (خَوْلة بنت الأزور)، فهبط على قلبه حينها أبيات (طرفة بن العبد) صاحب المُعَلّقة فتمتم في وجدانه:

لِخَولةَ أطْلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ تلوح كباقي الوَشْم في ظاهر اليدِ

وُقوفًا بِها صَحبي عَلَيَّ مَطيَّهُم يَقولونَ لا تَهلِك أَسىً وَتَجَلَّدِ

شطح به الخيال لرؤية أجزاء من جسدها الفاتن أغراه، ثم انسرح بذاكرته إلى التلذّذ بحديثها العذب الشَّهِيّ، تذكّر غزله الشّفيف بها حين قال دون أن يشطح: «خدمتكِ ضيافتي»، وتذكّر رَدّها الجميل بالمثل: «وفي ضيافتك سعادتي»، ثُمّ تذكّر وعاء الخبز الغارق في اللّبن، والسّعادة التّي غمرته؛ تذكّر في الحال سفر يوحنا: (أَنَا هُوَ خُبْزُ الحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلَا يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلَا يَعْطَشُ أَبَدًا)، تذكّر معاناة المسيح ولطفه بالجميع؛ فهطلت منه دمعة فركها بأصابعه وتنهد وهو يتذكّر (حُبّه المستحيل)، وقال في أعماقه: «هل تشملني بركة المسيح؟»، قالها وهو يتذكّر شهيته لإقناعها بالزّواج منه، ثُمّ تذكّر حُدُوْث الزّلزال عند دخول شقيقها، الذّي ألجأه للاختباء تحت السّرير كجرذ وضيع خشية السّحق، وقال في نفسه: «هل تنالني البركة؟، أم كلّ ما أتمناه مُحَال؟».

لم ينسَ روعة مشهد الثّمار منها حين انحنت إليه برأسها تبلغه بزوال الخطر، وهو قابع أسفل السّرير، مسح ذِلّة الاختباء من عقله نظير ما أهدته السّماء من رؤية مشهد سلة الفاكهة

التّي راقت له، ثم ذبحه مشهد الإرضاع الذي رغم حنوه أيقظ فيه ما لا يُنْسَى، تبسم رغم معاناته وتأزم حكايته التّي لا يرى لها حلًا، فتذكّر في الحال ما ورد في الكتاب المقدس، من قول يسوع لتلامذته: (مَنْ كَانَتْ لَدَيْهِ وَصَايَاي ويَحْفَظُهَا، هُوَ الَذّي يُحِبُّنِي. ومَنْ يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي، وأَنَا أُحِبُّهُ وأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي)، هنا انسدلت أمامه عدّة آيات وعدّة وصايا: (لا تُسِيءْ إِلَى أَرْمَلَةٍ مَا وَلاَ يَتِيم)، (وَلاَ تَظْلِمُوا الأَرْمَلَةَ وَلاَ الْيَتِيمَ). تأمّلَ صعوبة كلمة (أَرْمَلَة) وقسوة لفظة (يَتِيم)، فتذكّر معاناة حبيبته (خَوْلة) وابنتها (نَدَى)، وقال في نفسه: «إنّ حقوق الأيتام والأرامل عند الله عظيمة ولن تضيع»، ثُمّ دَبّ في عروقه النّشاط وقال: «ما بوسعي أن أفعل؟»، تذكّر شكوة خَوْلة حين قالت: «إن المبلغ الذّي تدفعه لا يكفي لَسّد احتياجات أسبوع»، انتفض مرعوبًا، وقال: «أيعقل أني أفنيت طعام اليتيمة والأرملة؟، لن يغفر الله لي إن باتوا جياعًا»، نهض كالمفزوع حين انفتحت أمامه آية من سفر التّثنية: (إِنَّهُ يَقْضِي حَقَّ الْيَتِيمِ وَالأَرْمَلَةِ، وَيُحِبُّ الْغَرِيبَ فَيُوَفِّرُ لَهُ طَعَامًا وَكِسَاءً)، فقال: «إنّهَا رسالة الرّبّ إليّ، وجبت عليّ الكسوة والمطعم وإن لم تقبلنِ زوجًا».

انحدر ناحية السّوق، ودفع عربته ليبتاع ما يلزم، وغايته سَدّ احتياجاتها، شعر بسعادة فائقة لم يشعر بها طيلة حياته، وكأنّه أصبح زوجًا لحبيبته، أنّه يعيش مواسم الأفراح، وضع مظروفين من المال للكسوة في كتاب عنوانه: (فن أن تكون دائمًا على صواب، لآرثور شبنهاور)، تحين الفرصة المناسبة لزيارتها حين هجعت العيون، وفتحت له الباب بعد طرقه، وخجل حين رآها ترتدي ملابس النّوم، اعتذرَ قائلًا: «لعلّي جئت في الوقت الخطأ»، رمقت ما اشتراه لها فقالت: «لماذا تُكَلّف على نفسك يا دجوار؟»، فتحت له الباب ودعته للدّخول، وهي تقول: «إنّ هذا أفضل وقتٍ بالنسبة إليّ، هَلّا تَفَضّلت بحمل ما جلبت للدّاخل»، تَوَرّدَت خدوده من دعوتها له، وحين تذكّر كتاب شبنهاور الذي ظلّ في السَّيّارة، قال: «سأذهب وأعود»، ما لبث وإن عاد إليّها بالكتاب الذي قبلته منه بما حوى شرط دخوله.

الباب

1

الفصل الثالث

(٧)

حَدِيْثٌ رَائِق

تذكّر كتاب شبنهاور الذي ظلّ في السَّيّارة، قال: «سأذهب وأعود»، ما لبث وإن عاد إليّها بالكتاب الذي قبلته منه بما حوى شرط دخوله، هنا دخل كما أرادت، واستقر به المقام، حينها قالت له: «هل يجوز أن استقبلك في هذا الوقت وأنت رجل وأنا امرأة أرملة؟»، تفصّد جبينه حرجًا ولم يعرف كيف يجيبها؟، لكنّ الالهام قاده لقول: «إنّ عليّ بن أبي طالب كان يدخل على الأرملة بعد العشاء ويحمل لها في الزّبيل الطّحين والسَّمّن والتّمر»، ثم أكمل لها حين وجدها تصغي لحديثه، وقال: «وكان يوقد لها النّار في التّنّور، وذات مرّة أشعله فلفح في وجهه النّار، فقال: (ذق يا عليّ، هذا جزاء من ضيّع الأرامل واليتامى)»، نغزه قلبه حين أدرك أنّ الرّحمة والشّفقة من قادت عليًّا للبرّ بالأرملة، ولم يقده إلى خَوْلة إلا الحُبّ والطّمع بها، قال لها بعد ذاك: «أيّنَها؟»، أجابته: «من؟»، «طفلتكِ (قطر النّدى وبل الصّدى)»، استحسنت هذا الاسم واللّقب، وقالت له: «أليس هذا اسم كتاب؟»، قال لها وهو يتناول ابنتها كما يتناول الوَرد والرّيحان: «بلى، هو كتاب لابن هشام الأنصاري، ورد فيه

معظم الأبواب النّحْوِيّة، على غرار كتاب شُذُوُر الذّهَب في معرفة كلام العرب».

تناول الصّغيرة وطبع عليها قبلته، حينها شعر بالرّحمة بمجرد مسحه على شعرها النّاعم القصير، وهو يستحضر أنّ القدر حكم عليها أن تعيش من غير أب، تناهى لمسامعه رقيق صوتها العذب: «لماذا تتعب نفسك من أجلّنا يا دجوار؟»، أجابها وعيونه لم تفارق الصّغيرة التّي تَعَلّق بها قلبه: «ألم يوصِ عليٌّ في الأيتام؟، حيث قال: (الله الله في الأيتام، فلا تغبّوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم)، ومن قبله القرآن الذّي يقول: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ** ﴾»، أعجبها منطقه، ولكنّهَا حركت الحديث إلى ناحية مختلفة حيث قالت: «عجيب أمرك، مَسيحيّ وتستشهد بما لدى المسلمين؟»، نظر لها بصفاء وقال: «لا يوجد فرق في المبادئ بين الأديان، إنّ هذا ما يرضِ الضمير والخلق الكريم»، ردّت عليه لتفصح عما أرادت: «إنّمَا قصدت لماذا لم تستشهد بما لديكم؟»، أجابها عن سؤالها بقوله: «لأنّه وقع في يدي حديث في كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري يقول: (حَدِّثوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ)، فأدركت الحكمة وامتثلت»، ثُمّ عَرّج بحديثه ناقمًا على بخس النّاس للمرأة الثّيّب، إذ قال: «وليس كلّ ما يراه النّاس صحيحًا، فالمرأة الثّيّب قد تكون

أكثر بركة من غيرها، ولعلّ الله يطرح السّعادة فيها، والنّاس يبحثون عنها عند البكر فلا يجدونها»، راق لها حديثه لا سِيّما أنّه شاب بكر لم يلمس امرأة قط.

فطن أنّ الوقت مرّ بهما سريعًا، وقد تأخر، فَلَمّا استيقظت ندى تطلب الحليب والرّضاعة، استأذن بالانصراف، فقالت له: «أجلس فلست غريبًا»، تحرك قلبه نحوها، لكنّه برر انصرافه: «سأخرج قبل أن تفيق العيون، وحَتّى لا يقع عليكِ الحرج».

ما كانت بغيته الخروج، وشَطْر قلبه لديها إن لم يكن كلّه، إلا أنّه خشي أن تخونه كوابح نفسه، لأجل ذلك خرج ولم يرجع لمنزله في حينها، إنّمَا التّمس طريق الكنيسة حين تذكّر حكمةً لفرنسيس بيكون، يقول فيها: (بدلًا من اضاعة الوقت في جمع الأوراق المتطايرة، قم بإغلاق النّافذة!)، وقال: «إن زيارتي لخولة المستمرة، ستوقعني في الخطيئة، ولا ريب أنّهَا تشتاق لزوج»، قطع هلوسته حين لمح أمامه بوابة الكنيسة وقال: «لأسأل الرّبّ أن يعصمني، فلن تغلق نافذة رغباتي إلا بالزّواج»، أمسك مقبض باب الكنيسة وهو يرمق الفجر، فقال بخشوع مخاطبًا القدّيسة العذراء: «يا أمّي الحبيبة، ها قد بزغ فجر يوم جديد، وها قد اقتربت منكِ لأحييكِ أوّل تحيّة»، ثم اندفع نحو الدّاخل يُرَتّل ضراعته: «يا مريم البتول الطّوباوية، كيف يمكننا

نحـن غيـر المسـتحقين، أن نفيـكِ حقـكِ بالشّـكر والإكـرام؟؛ لكونكِ أنقـذتِ العالـم الغـارق بالخطيئة بموافقتـكِ الكاملة على المسـاهمة في مخطـط اللـه، اقبلـي امتناننـا»، كقطـرات شـمع مـذاب سـكب عبراته، فوجـد في قلبـه خشـوعًا واستشـعر الخِفّة في قلبـه والبركـة تحيطه.

رمـق يمينًا وشـمالًا لعلّه يـرى ملاكًا أو قدّيسًـا أو لعَلّـه يحظى برؤية ضـوء غامض للقدّيسـة العـذراء أمّ يسـوع، فيتشـرف بالظّهـور المريمي الـذّي لا يحظـى بـه إلا الخَـوَاصّ الخُلّـص أو من لـه حَظّ عظيـم، وعبثًا رمـق، فلـم يـرَ شـيئًا، لكنّـه اكتفـى بتدفـق أنهـار الإيمـان فـي أعماقـه، وخـرج مـع تغريـد الطّيـور وهديـل الحمائـم، فقرصـه الجـوع، فسَـدّ رمقـه مـن خبز شَـهِيّ من أحـد المخابـز القريبـة، وتذكّـر رمزيّـة الخبز، فدمعـت عينـه علـى ألـم يسـوع، وتلا ممـا يحفظـه فـي قلبه: «قـد امتلأ قلبـي فرحًـا، ولسـاني تهليـلًا. فلتعظـم نفسـي الـرّبّ، وتبتهـج روحـي باللـه مُخَلّصـي. لقـد أقبلـتُ إليك يـا ربّ لِتُلْبِسْـني حلّـة نقيّـة للدّخول إلـى عُرسـك. فليكـن اتحـادي بك».

(٨)

فَرَاشَةُ الكُتُب

السّمَاء زرقاء ملونة بالهدوء والسحب البيضاء، والأطيار تزغرد في انتشاء، الشّمْس من شرفتها تعانق الغمائم السابحة في الهواء كالقوارب، فترتفع بأشعتها متسلقة سلالم الأثير لتتوسّط منارتين، ثلاثة أصلبة تُزَيّن واجهة تلك الكنيسة، وعلى جانب الرّصِيف تسير فتاة ترمق هذا الصّرْح الأسطوريّ الذّي ظلّ شامخًا عبر العصور، تمتمت في خلدها متباركة باسمها: «الكنيسة المُعَلّقة»، رسمت إشارة الصّليب على نفسها، وأغمضت بعيونها في احترام وقَداسة يُجَلّلها الحُبّ والصّفاء، وعلى الفور تذكّرت سؤالها لجَدّها حين كانت طفلة تلعب بين يديه: «لماذا سُمِيّت هذه الكنيسة بالمُعَلّقة يا جَدّي؟»، أجابها وهو يُسحّج لحيته البيضاء الكثة: «اسمعي يا ماتيلدا إنّ هذه الكنيسة المباركة سُمِيّت بالمُعَلّقة لكَوّنها بنيت على بُرْجين من أبراج حصن بابليون»، لمحت المنارتين وتخيلتهما ساريتان لصارية تَشُقّ عباب البحر، تخيّلت أنّ النّاس في الطّوفان غرقى، ولا نجاة لهم إلا في ركوب هذه السّفِينة، قالت في نفسها: «لماذا

انطبع في ذهني أنّ هذه الكنيسة تُمَثل سَفينة نوح؟»، وحضرها دون استدعاء: (وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ، لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هذَا الْجِيلِ)، هنا قررت أن تدخلها رغم أنّهَا ترغب في قيافة أثر كتاب من المكتبة، ارتقت السّلالم الطّويلة الملساء التّي تخشى السّقوط منها منذ صغرها، بلغت المقصد وأوقدت شمعة ثُمّ انتخبت من الصّلوات (معونة المحتاجين)، فأخذت تُرَتّل صَلاتها في خشوع: «يا قدّيسة مريم، يا معونة المحتاجين، امنحي القُوّة للضّعفاء، عزّي الحزانى» شعرت بالراحة والأمان، فراشة تخرج من شرنقتها باحثة عن النّور والضّياء والزّهر؛ لتحتسي منها الرّحيق، هرعت للمكتبة لتلعق منها أشهى كؤوس الشّهد والعسل.

ظلّ دجوار يلتهم كلّ كتاب يصادفه أو يستفز عقله، فهو لا يقبل أن يَظَلّ خائفًا على مسيحيته متشبثًا بالجدار، لهذا أخذ يقرأ ما هَبّ ودبّ وإنْ كان الكتاب يحمل بين طَيّاته نقدًا أو طرحًا مغايرًا على غير المألوف، قرأ لفريدريك نيتشه كتابيه (نقيضُ المسيح) و(عَدُوّ المسيح)، ثُمّ قرأ كتاب (مقالة في الأخلاق) للفيلسوف فرانسوا ماري آروويه (فولتير)، ثُمّ أعقبه بكتاب (ضِدّ المَسِيحيّين) للفيلسوف فَرفوريوس الصُّوري، وبينما هو مُنْدَمِج في قراءته في

كتاب بيرتراند راسل (لماذا لست مسيحيًّا؟)، أطَلّت عليه غادة مَسِيحيّة بلباسها التّقلِيديّ المُحتشم والصّليب يَتَدَلّى من عنقها، رغم كونها محافظة خفرة إلا أنّ حسنها جذبه نحوها، قاوم سمتها الجذاب لتجرفه أفكار راسل، فأخذ يدوّن في مذكرته ما انطبع في عقله مما ورد في الكتاب، حيث سال به القلم: «ينتقد راسل (برهان العَلّة الأولى) للوصول إلى وجود الخالق، إذ يرى أنّ للقوانين الطّبِيعِيّة تفسيرات بشريّة لما تراه العيون، وهذا ما لا يرضخ له الفلاسفة»، لم ينظر للفاتنة التّي تسرح وتمرح في فضاء مكتبته، ويستمر به التدوّين: «يُفَند راسل (برهان النّظام)، إذ يرى أنّه تفسير لقانون التّكيّف الذّي يتبناه داروين»، برشاقة جاذبة جذبته إليّهَا وهي تنتقي لها كتبًا، استعصم براسل الذّي يُشّبع كانط نقدًا رغم عقلانِيّتِه، يدوّن دجوار حروفه: «يسخر راسل من كانط ويصفه بأنه مؤمن بما تلقاه في أحضان أمه»، رفع دجوار رأسه ليرى ملاحة الفتاة التي تتنقل بين الرفوف، هنا بدأ يشعر بالتّشتت بين النّظر للفراشة التّي تَجُول وتَصُول بقربه، وبين سياط راسل التّي بلغت الدّروة في نقده لشخصيّة المسيح المرسومة في الأناجيل، أفرغ سطره الأخير على الرقاق: «ينتقد راسل الإيمان بقيامة المسيح ويرفض منه

البرهـان الأخلاقـيّ فـي إيمانـه بالجحيـم، إذ يرفـض راسـل الإيمـان بالعـذاب الأبـديّ»، هنـا أفـاق دجـوار علـى غصـن البـان للفاتنـة التـي مَـدّت ذراعهـا لكتـابٍ بعيـد يقـع فـي الـرَّفّ العلـوي، حيـث انسـدل كمهـا للأسـفل كاشـفًا عـن ذراعِ الفِضّـةِ البَـراق، لـم تحتمـل عيونـه مشـهد السّـنَاء مـن ذراعهـا العـاري، فقـال وقـد أخـذ بهـا: «إنّهَـا حوريّـة الجَنّـة تتخَفّـى بلبـاس راهبـة»، وضعـت أمامـه الكتـب، ووضعهـا بـدوره فـي كيـس، لـم يتمكـن مـن ضبط الحسـاب حيـن تنـاول منهـا المبلـغ؛ لمـا يَعتَمِـل فـي قلبـه مـن حسـنها، غـادرت الحسـناء مدركـة أنّـه منشـده بهـا وواقـع فـي شـرك فتنتهـا، انصفـق البـاب معلنًـا نهايـة المشـهد، وتبخـر فـي لحظتـه الحُلـم السَّـعِيد، جرفـه الشّـوق نحوهـا رافضًـا إنهـاء الحـدث عنـد هـذا الحَـدّ، فلـم يـرَ نفسـه إلا سـائرًا خلـف الفراشـة وقـد أغلـق المكتبـة بالمفتـاح، وظـلّ هائمًـا وراءهـا فـي انجـذاب لا يُحْسَـد عليـه.

(٩)

حَبْلُ النّجَاة

خرجت (ماتيلدا) من المكتبة، وقد أبهجها انبهار عيون شاب وسيم بفتنتها، أسَرّها ما أحدثه حسنها في قلب بائع الكتب، واستمرأت انجذابه نحوها، وتَمَنّت أن تُلقّنه المزيد من فتنة النّسَاء، لتُعَلّمه أنّ للنّساء مملكة يخضع لها أكابر الرّجَال، شعرت بوثوقٍ جاذبيتها واستملحت ما جرى؛ وراق لها أن تُحَرّك الحطب في موقد اللهب، ضحكت من فرط سعادتها وأخفت النّواجذ بأنامل رقيقة، انطلقت في انشراح وسرور، كما ترقص الأيائل، وفي غمرة الغّبطة قالت: «انكشاف ذراعٍ واحدة أحدث فيه كلّ هذه الزّوبعة، ماذا لو ...؟»، أخذت تفكر أيّ الطريقين تسلك معه؛ طريق الخفارة والنّقاء؟، أم طريق الجسارة والإغراء؟

رغم السّرور الذّي داخلها توًا، لم تقارنه بروح الطّمأنينة التّي تغلغلت في أعماقها صباحًا، وقالت: «إنّ الحياة بعيدًا عن الكنيسة مليئة بالملوّثات»، واستشعرت أنّ قلبها الأبيض النقي تبقّعَ ببقع سوداء، وأنّها تنجرف نحو مستنقعٍ آسن، هنا أدركت أنّها تسير في دهاليز يختبأ فيها الشّيطان، توقفت أمام

مشهد مخيف حين رسمته في خيالها كائن شديد البشاعة، ذو وجه عبوس قمطرير، له قرون وذيل وحافر، تضج منه رائحة نتنة، بخيالها رأت أنّه يدير أرواحًا نجسة شريرة من طرازه؛ وأنّه يستهدفها للإيقاع بها في حفرة الرّذيلة، انتفضت مرعوبة ورفضت أن تدعّ نعيم الجنّان الخالد، إلى زفير جَهنّم الأبديّ، رفضت أن تلبس مقانع النّار وسرابيل القطران، ما إن سقطت دمعة ندامة من عينها حتى رأت صاحب المكتبة يتبعها ويسير خلفها، هنا أجفلت وارتعبت كطريدة وقعت في شبكةِ صيدِ إبليس، ولم ترَ لها مهربًا غير التّعَلّق بالكنيسة المُعَلّقة، التي طوت سلالمها والتّحقت بسفينة نوح لتعصمها من الطّوفان.

في الكنيسة رأت النّور يسطع فوق الكتاب المُقَدّس فأمسكت به كما يمسك الغريق بحبل النّجاة، وحَتّى تُرَوّض نفسها التّي تُرَغّبها في الابتذال وإظهار المفاتن لغير ذي محرم، أخذت تُخَوّف نفسها الأمّارة بالسّوء، بآيات العذاب، فقرأت: (فَهُوَ أَيْضًا سَيَشْرَبُ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ اللهِ، الْمَصْبُوبِ صِرْفًا فِي كَأْسِ غَضَبِهِ، وَيُعَذَّبُ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ أَمَامَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ وَأَمَامَ الْخَرُوفِ. وَيَصْعَدُ دُخَانُ عَذَابِهِمْ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ)، لم ترتدع النّفس الأمّارة عن الابتذال، فالتهمت المزيد: (وَطُرِحَ الْمَوْتُ

وَالْهَاوِيَـةُ فِـي بُحَيْـرَةِ النَّـارِ. هـذَا هُـوَ الْمَـوْتُ الثَّانِـي. وَكُلُّ مَـنْ لَـمْ يُوجَـدْ مَكْتُوبًـا فِـي سِـفْرِ الْحَيَـاةِ طُـرِحَ فِـي بُحَيْـرَةِ النَّـارِ)، استمرت فـي جلـد روحهـا بسـياط آيـات العـذاب، فسـألت الـرّبّ أن ينصحهـا بمـا فيـه الصّـلاح، ثـم فتحـت الكتـاب المُقَـدّس للمَـرّة الثّالثـة، فقـرأت: (فَـإِنْ كَانَـتْ عَيْنُـكَ الْيُمْنَـى تُعْثِـرُكَ فَاقْلَعْهَـا وَأَلْقِهَـا عَنْـكَ، لأَنَّـهُ خَيْـرٌ لَـكَ أَنْ يَهْلِـكَ أَحَـدُ أَعْضَائِـكَ وَلاَ يُلْقَـى جَسَـدُكَ كُلُّـهُ فِـي جَهَنَّـمَ. وَإِنْ كَانَـتْ يَـدُكَ الْيُمْنَـى تُعْثِـرُكَ فَاقْطَعْهَـا وَأَلْقِهَـا عَنْـكَ، لأَنَّـهُ خَيْـرٌ لَـكَ أَنْ يَهْلِـكَ أَحَـدُ أَعْضَائِـكَ وَلاَ يُلْقَـى جَسَـدُكَ كُلُّـهُ فِـي جَهَنَّـمَ)، بهتـت حيـن وجـدت أنّ الكتـاب المقـدس يحدثهـا عـن يدهـا المنكشـفة فـي المكتبـة، ولـم تكـن إلا اليـد اليمنـى ذاتهـا، هنـا خاطبـت قلبهـا: «ألا تكفـي هـذه الوصايـا؟، ألا تتعـظ يـا قلـب؟».

انجرفـت كالمهووسـة لصَـلاة الخاشـعين: (يـا إلهنـا، إلـه الخَـلاص، أنـت علّمْنـا أَنْ نشـكُرَك حـقَّ الشّـكر، علـى احسـاناتِك التّـي صنعتهـا وتصنعهـا معنـا. أنـت يـا إلهنـا، القابِـل هـذه القرابيـن، طهِّرنـا مِـن كلِّ دنـسِ الجسـدِ والـرّوح. وعلّمنـا أن نُتِـم القداسـةَ بمخافتـك. حَتّـى إذا نلنـا نصيبًـا مِـن أقداسـك بشـهادةٍ صالحـةٍ مـن ضميرنـا، نتحـد بجسـدِ مسـيحِك ودمِـهِ المُقَدّسـين)، هنـا انفجـرت فـي البـكاء، ولـم تسـتطع اكمـال حروفهـا، شَـخَصَ أمامهـا يسـوع

فـوق الصّليـب، وتذكّـرت كلّ خطاياهـا وقارنتهـا بحجـم المعانـاة التّـي بذلهـا المَسِـيح، فسـحّت الدّمُـوع حَتّـى شـعرت بالنّقـاء والطّهـر يحتويهـا مـن جديـد وكأنّ أجنحـة الملائكـة مسـحت علـى بقـع قلبهـا فغـدى طاهـرًا أبيضًـا كالثّلـج، تمسـكت بهـذا النّقـاء، فَشَـمّت رائحـة زكيّـة عبقـة لـم تألفهـا مـن قبـل، قالـت فـي نفسـها: «لا أظَنّهـا إلا مـن الملكـوت، ولعـلّ العـذراء خطـرت فـي أرجائنـا، أليسـت هـذه كنيسـتها؟»، مـا إن وصلـت ماتيلـدا إلـى دارهـا حَتّـى رأت أنّ كتـابَ بائـع الكتـب الخـاص بـه قـد وقـع بيـن كتبهـا عـن طريـق الخطـأ، فقالـت فـي نفسـها: «مـا هـذه المصيبـة التّـي وقعـتُ بهـا، لا بُـدّ لـي أن أرجعـه لصاحبـه».

الباب

2

الفصل الاول

(١٠)

لِقَاءٌ آخَر

وصلت ماتيلدا إلى دارها فرأت أنّ كتابَ بائع الكتب الخاص به قد وقع بين كتبها عن طريق الخطأ، فقالت في نفسها: «ما هذه المصيبة التّي وقعتُ بها، لا بُدّ لي أن أرجعه لصاحبه»، وتمتمت في سرها: «ولكن، كيف لي أنّ أعود إلى شبكة الصيد، وألقي بنفسي في شرك إبليس؟، ماذا لو..؟»، قلبت الفكرة في رأسها وقالت: «عليّ أن لا أسمح لنفسيّ بالتّمادي، عليّ أن أعاهد نفسي أن لا أظهر مني قلامة أظفر»، طمأنت نفسها وقالت: «سأقرأ المزيد من آيات التّنكيل والعذاب، وسأتَحَصّن بورد التطهير قبل الذّهاب، وسأتذرع بالاحتياطات اللّازمة»، «سأضع الكتاب وأمضي»، «لن أتأخر هناك»، تذكّرت أنّهَا رأته يُقَسّم طرفه بينها وبين الكتاب، تفطنت أنّ الكتاب له قُوّة جذب يضارعها وقد ناصفها في شده إليه، هنا حملتها الغيرة والفضول لمعرفة هذا الكتاب الذّي شغله وأخذ دور الضّرة، فقالت: «ألهذا الكتاب سحر وإغراء؟، حَتّى تمكّن من قلبه»، هنا ألقت نظرة بداخله، ووقع بصرها على حروف الكتاب فتشبّثت بقراءته.

قـرأت فـي الكتـاب نقـدًا لـم تقـرأه مـن قبـل، انتفضـت حيـن أخذتهـا الحَمَيّـة علـى المسـيحيّة والمَسِـيح، وأرادت أن تُمَـزّق الكتـاب وتطحـن صفحاتـه بأضراسـها مـن شـدة الغيـظ والحنـق، قـرأت أن (راسـل) ينـزع المسـيح مـن الإنسـانيّة حيـن يؤمـن بالجحيم والعـذاب الأبـديّ، وأن هـذا محـض وحشـيّة مفرطـة، ثـم رأتـه يرجح بـوذا وسـقراط فـي الحكمـة علـى يسـوع، قـرأت العلاقـة الطّرديّـة بيـن شِـدّة التّمسـك بالدّيـن المسـيحيّ وبيـن الوحشـيّة، واسـتفزتها دعوتـه أنّ لا نـرى العالـم بالعبوديّـة والخضـوع إنّمَـا بالعقـل.

تَمَنّـت أن تهـرق علـى الكتـاب دورق بنزيـن لتحرقـه، ومنعهـا مـن التّنفيـذ كونـه ليـس لهـا؛ وعليهـا إرجاعـه لصاحبـه كمـا يأمـر الدّيـن والخلـق الـذّي تتحلّـى بـه، قـررت أن تقـرأ الكتـاب مـن بدايتـه، وتضـع النّقـاط الهامـة علـى ورقـة، حيـن أحـدث لهـا تشوّشًـا فـي عقيدتهـا، رأت فـي حديـث راسـل شـيئًا مـن الوجاهـة، فقـررت أن تدفـع بتسـاؤلاتها إلـى رئيـس الكهنـة (القُمُّـص)، حَتّـى لا يدخـل الشّـكّ فـي اسـتقرار إيمانهـا. انهـت الكتـاب؛ وسـطرت التّسـاؤلات علـى الورقـة، ثُـمّ لبسـت ملابسـها الخفـرة المحتشـمة، وبالغـت فـي الحشـمة بأقصـى مـا يكـون الاحتشـام، حَتّـى لا يُـرَى مـن شـعرها خصلـة واحـدة، وهرعـت إلـى كبيـر القسـوس (القُمُّـص)، لينـزع

الشّكَّ الذّي داخلها، وحين رأت أنّ المكتبة مفتوحة، ارتأت أن ترجع الأمانة لأهلها قبل دخول الكنيسة، لا سِيّما أنّ نقاشها مع القُمّص قد يطول، سارت ناحية المكتبة فتذكّرت أنّهَا ستواجه من أغرته بفتنتها، وأنّه قد لحق بها من فرط إعجابه بها، هنا تدفقت حرارة خفيّة في صدرها مشبوبة بأنهار السّعادة وأمواج الفرح والابتهاج، لم تعلم من أين حَلّت؟ وما مصدرها؟، هنا تذكّرت أنّ بائع الكتب كان يرتدي الصّليب، فتساءلت في ذاتها: «عجيب أمره، يقرأ كُلّ هذه التّشكيكات ولا يتخلّى عن صليبه؟، هل يحتذي بإيمانويل كانط في تَمَسّكه بعقيدة أمه كما يرى راسل؟»، «أم لعلّه مُتَضَلّع في المسيحيّة؟، أو يرتدي الصّليب رياءً؟، أو...»، بلغت أعتاب المكتبة، فقرع قلبها بِشِدّة، لكونها ستلتقي بمن أولعته؟، غيبت هذا الابتهاج وكل المشاعر الدّافئة التّي احتوتها وردمتها حين أحضرت خصومها، وأنّها تشن حربًا ضِدّ إبليس وشبكته، تشبّثت بأطراف أكمامها حَتّى لا تكشف الرّيح منها عن أيّ شيء.

دخلت المكتبة لكنّها لم ترَ في المَحَلّ أيّ أحد، قررت أن تضع الكتاب على المنضدة وتنصرف بسلام، وضعته واستدارت منصرفة فاصطدمت به، فتلوّن وجهها خجلًا منه ولم تعرف

مـا تقـول؟، زاد فـي اضطرابهـا وحيائهـا منـه رائحـة قميصـه المشـبّع بعطـر زكـيّ، ابتسـم معتـذرًا، وتحجـرت الكلمـات فـي حلقهـا، فلـم يسـعفها غيـر بـاب الخـروج، إذ انصرفـت عنـه مـع أول هَبّـة.

لـم يكـن دجـوار أقـل منهـا ارتبـاكًا، فقلبـه اضطـرب لملقاهـا، وتمنّـى أن لا تهـرب منـه بهـذه السّـرعة، قـرر أن يتبعهـا كمـا فعـل أوّل مَـرّة؛ لكـنّ زبونًـا حَـلّ فـي ضيافتـه أفسـد عليـه خُطّتـه إذ سـبقه بدخـول المكتبـة وأخـذ يسـأله عـن عِـدّة كتـب ينـوي شـراءها، فغابت النّجـلاء التّـي سـابقت الرّيـح، بلغـت ماتيلـدا الكنيسـة وطلبـت لقـاء القُمُّـص ليجيبهـا عـن بعـض التّسـاؤلات العَالقـة، ودَسّـت أصابعهـا فـي حقيبتهـا لتسـتخرج الورقـة التّـي أشـبعتها حبـرًا، فَتّشـت عنهـا فلـم تجدهـا فـي الحقيبـة، هنـا تذكّـرت علـى الفـور أنّهـا ظَلّـت فـي كتـاب صاحـب المكتبـة، تَـوَرّدت خدودهـا كثمـرة الطّماطـم، لكونهـا فـي حاجـة إليّهـا، وهـذا يعنـي لقـاءه آخـر بـه، إذ قالـت فـي نفسـها: «مـاذا سـيقولُ بائـع الكتـب؟، وكيـف لـي أن اسـتردها منـه؟».

(١١)
الوَرَقَةُ المَنْسِيَّة

تناول دجوار كتابه النّفيس الذّي جلبته له محظيته التّي يتمنّى رؤيتها بعد أن ظَلّ في حيازتها يومًا وليلة، تمنّى لو كان في محلّه، أخذ يتذكّر كيف تسلل كتابه لها عن طريق الخطأ؟، تذكّر اضطرابه حين قربت منه، هنا وقع الخطأ غير المقصود، أخذ يضحك من نفسه؛ كيف وضع كتابه مع كتبها؟، فقال: «لعلّ الرّبّ أراد لنا أن نلتقي من جديد؟»، ثم أخذ يسرح في الحمرة المشرقيّة التّي كست وجنتيها لحظة ارتطامها بصدره، أدرك أنّ حسنها ازداد روعة وبهاء، حين تزيّن وجهها بالطّلاء الزّهري خجلًا، فقال مبتسمًا: «إنّ السّماء أرادت أن تصطدم بي، ولكنّي لا أدري هل سيكون هذا اللّقاء الأخير؟، أم...؟»، وبينما هو يُقَلّب أوراق الكتاب الذّي تَعَطّر بعطرها الشّذي، قال: «هل عطرته لأجلّي؟، أم أنّ الزّهور تُعَطّر كلّ ما تلمسه؟»، ثم تذكّر شعرًا هبط عليه دون خيار:

صاحب أخا ثقةٍ تحظى بصحبتهِ فالطبعُ مكتسبٌ من كلِّ مصحوبِ
والرِّيحُ آخِذَةٌ ممّا تمرُّ بهِ نتْنًا مِنَ النَّتْنِ أو طيْبًا مِنَ الطّيبِ

لم يكمل البيت حَتّى لمح الرّسالة التّي ظنّ أنّهَا منها إليه، فنبض قلبه من شِدّة الوجد، وحسبها تُطارحه الغرام وتجاذبه

الحُـبّ، أخـذه الشّـغف لقـراءة مـا دوّنـه خَطّهـا الجميـل: «هـل حقًـا أنّ الأديـان الكبـرى غيـر صحيحـة ومؤذيـة؟، هـل صحيـح أنّ الدّيـن الـذّي يقبلـه الإنسـان هـو ديـن المجتمـع؟»، التهمتـه السّـطور وهـو يلتهمهـا: «الإلـه المُحِـبّ للخيـر، لمـاذا أظهـر الطّغـاة مثـل سـتالين وهتلـر؟»، أخـذ يقـرأ تسـاؤلاتها وملاحظاتهـا علـى كتـاب بيرتراند راسـل، الـذّي وقـع بيـن يديهـا وقـد قرأتـه بعنايـة، فقـال فـي نفسـه: «إنّهَـا فتـاة حاذقـة، تعـرف كيـف تطـرح السّـؤال؟»، وتذكّـر مـا قالـه فولتيـر، علـى الفـور: (أحكـم علـى الشّـخص مـن أسـئلته لا مـن أجوبتـه)، ثـم قـال: «هـل تريدنـي أنّ أجيـب علـى كلّ هـذه التّسـاؤلات؟»، هـزّ رأسـه بالإيجـاب، وهـو يقـول: «بـلا شـكّ، وإلا فلمـا وضعتهـا لـي إذًا؟».

وجـد نفسـه فـي امتحـان صعـب، فهـو يقـرأ الكتـب دون أن يُصَرّح بقناعتـه لأحـد، أمـا الآن، فعليـه أن يُصَـرّح، والتّصرّيح لـه ثمن، لاحت لـه الفكـرة أن يُطَعّـم إجابتـه بمـا يـراه الفلاسـفة، حَتّـى يتقاسـم معهـم شـطرًا مـن العبـأ، فكتـب: «يقـول نيتشـه: (ليـس هنـاك حقائـق، بـل فقـط تأويـلات)، هـذه الحكمـة الفلسـفية أراهـا تسـهل علينـا تنـاول آراء الكثيريـن»، واصـل الكتابـة بـروح رشـيقة فـي صفحة بيضـاء: «إنّ قراءتـكِ لكتـاب فلسـفي يعنـي أنـكِ تتحملـين دفـع الضّريبـة، يقـول

باروخ سبينوزا: (لا أعرف كيف أعَلّم الفلسفة؟ بدون أن أسبب اضطرابًا في الدّين الرّاسخ!!)، فكثير من الدّينيّين ألحدوا نتيجة قراءتهم للكتب الفلسفية، لذا أنصحكِ بتَوَخّي الحَذر، ولأجل هذا نرى أنّ الكنيسة أحرقت كتب الفلاسفة، كما أحرقت أصحابها حين شطحوا بأفكارهم على غير المألوف».

تنهد ثم واصل كتابته: «والآن لنأتي للإيمان، يقول الفيلسوف ديفيد هيوم: (الحكيم هو من يبني إيمانه على البرهان)، فهناك من يتكئ على التّجربة ليبلغ اليقين، وهناك من يعتمد المنطق لإثبات وجود الخالق، غير أنّ راسل يرفض البرهنة العقليّة لوجود الإله، ويرى أنّها مسألة إيمانيّة وحسب». أكمل تَدوينه: «هذه الأفكار وغيرها تجعلنا نعيد مباننا الإيمانيّة، فالإيمان يتولّد من القناعات والنتائج البحثيّة والاستدلاليّة، لا من خلال وصاية فوقيّة وفرض خارجيّ، وإلا فإنّ أبسط هَبّة هواء ستزحزحه عن مقره، أنا لا أرى شرًا في مثل هذه الكتب، بل هي تدفع العاملين في اللّاهوت من تطوير أدلتهم وأدواتهم، ويبقى في الأخير الإيمان قناعة قلبيّة لا يمكن لأحد فرضها على الغير».

«وبمناسبة ذكر هتلر وستالين، ووصفهم بالطّغاة، أقول: ألا نلتحق نحن كذلك بهذا الرّكب؟، ولو بنسبة ما، في مكان

مـا، فـي وقـت مـا، خاصّـة إذا قبلنـا رأي مونتسـكيو فـي الطّاغيـة؛ إذ يقـول: (موقـف الطّاغيـة هـو موقـف ذلـك الـذّي يقطـع شـجرة لكـي يقطـف ثمـرة)، ألسـنا نقطـع أشـجار العالـم لقطـف الثّمـار؟، أنـا لا أقصـد الشّـجرة المعروفـة، فـكلّ كيـان شـجرة، والمكتسـبات ثمـار»، لـم يشـأ أنْ يطيـل سـطوره، ورغـب فـي الختـام، حينهـا تذكّـر مقولـة جـان جـاك روسـو: (قـد تغفـر لـك المـرأة القسـوة والظّلـم، لكنّهـا لا تغفـر لـك عـدم الاهتمـام بهـا)، عنـد ذلـك وضـع سـطره الأخيـر لقلبهـا: «أبـارك لـكِ هـذا الفكـر المُتَوقّـد، وأرى لـكِ مسـتقبلًا نَيّـرًا»، ثـم أضـاف ليُشَـجّعها علـى القـراءة: «مـن لـم تكـن لـه بدايـة مُحْرّقـة لـن تكـن لـه نهايـة مشـرقة». وضـع فـي الختـام نقطـة نهايـة السّـطر، وطـوى الورقـة مـع ورقـة تسـاؤلاتها؛ حيـن ذاك رآهـا أمامـه كجَـانّ يعـرف مَتّـى يَغِيّـب؟ ومَتّـى يظهـر؟

(١٢)

ضِيَاءُ شَمْعَة

وقفت ماتيلدا أمام بَوّابَة المكتبة، حائرة كيف تأخذ منه ورقتها؟، وبينما هي تُفكّر كيف تصيغ عبارتها؟، رآها أمامه فعَلِمَ أنّهَا في انتظار الإجابة منه، ولم تكن رغبتها كما توقع، وهذا ما دفعه لتقدّيم ورقتها لها مَطويّة وفي بطنها رَدّه، وهكذا كانت تلك الرّسالة غير المقصودة بداية تواصل، حيث وجدت في أناملة بعض حاجاتها، ورأت أنّه ترك لها قنوات التّواصل معه في ورقة إجابته، تَرَدّدت في أوّل الأمر، لكنّهَا أبرقت إليه وابل الإشكالات، التّي لم يجب عنها، ثم اِمتَدّ بينهما الحديث من حُبّ الفلسفة إلى فلسفة الحُبّ، فرأت أنّهَا تَعَلّقت بالشّخص الذّي تهواه، ولم تَمُرّ الأيام إلا وهي بين أحضانه عروسة يغازلها القمر، وتغار منها الشّمس.

رأت في دجوار خلاصة مبتغاها، لا سِيّما أنّه طارحها الحُبّ والغرام، وشاطرها فيما تهوى، رفع (الطّرحة) عن وجهها ليتبدى له البدر في ليلة تمامه، لم يرغب أن يبدأ العُشّ الزّوجيّ إلا بآيات من الكتاب المُقَدّس، إذ قال لها دجوار في حُبّ: «مِنْ

أَجْلِ هـذَا يَتْـرُكُ الرَّجُـلُ أَبَـاهُ وَأُمَّـهُ وَيَلْتَصِـقُ بِامْرَأَتِـهِ، وَيَكُـونُ الِاثْنَـانِ جَسَـدًا وَاحِـدًا»، راقـت لهـا فكرتـه، فشـاطرته بقولهـا لتـردّ عليـه بـذات الطّـراز: «أَيُّهَـا الرِّجَـالُ، أَحِبُّـوا نِسَـاءَكُمْ كَمَـا أَحَـبَّ الْمَسِـيحُ أَيْضًـا الْكَنِيسَـةَ وَأَسْـلَمَ نَفْسَـهُ لِأَجْلِهَـا»، تبسـم لكونهـا فهمـت مـراده، فقـال غيـر مستسـلم، ليظفـر بهـذه المُسَـاجَلة الانجيليّـة المبتكـرة: «أَيَّتُهَـا النِّسَـاءُ اخْضَعْـنَ لِرِجَالِكُـنَّ كَمَـا لِلـرَّبِّ، لِأَنَّ الرَّجُـلَ هُـوَ رَأْسُ الْمَـرْأَةِ كَمَـا أَنَّ الْمَسِـيحَ أَيْضًـا رَأْسُ الْكَنِيسَـةِ»، لـم تعـرف مـا تقـول؟؛ فصمتـت، وقبـل أنّ يعلـن هزيمتهـا، قالـت: «الْمَـرْأَةُ الْمُحِبَّـةُ لِلصَّمْـتِ عَطِيَّـةٌ مِـنَ الـرَّبِ»، أعيـاه الاسـتحضار، فَلَمّـا رمقـت السّـاعة قـال: «وَهَكَـذَا كَانَـتْ سَـارَةُ تُطِيـعُ إِبْرَاهِيـمَ وَتُنَادِيـهِ سَـيِّدِي»، ختمـت حديثهـا معـه: «وَأَمَّـا الْمَـرْأَةُ فَهِـيَ مَجْـدُ الرَّجُـلِ»، فأطفـى لهـا الشّـموع، لتبشـره بشـمعة تضـيء فـي أحشـائها بعـد أيـام معـدودات.

لـم تـدم لـه السّـعادة، رغـم أنّ ماتيلـدا وهبـت لـه أغلـى مـا لديهـا ولـدًا كأنّـه اللؤلـؤ الرّطـب، غادرتـه راحلـة إلـى عالـم الملكـوت فلـم يـر نفسـه إلا باكيًـا لفقـده إيّاهـا وقـد شـرق بغُصّتـه وهـو يحتضـن طفلـه اليتيـم، الـذّي أطلـق عليـه اسـم (بشـار)، لعلّـه يكـون بداية بشـر وسُـعد، بعـد فقـد أهـم مـا لديـه، تناقـل الجميـع الخبـر، فشـاطروه حزنـه، وواسـوه بمـا لديهـم مـن كلمـات العـزاء، زاول عملـه بعـد

حين ليرى أمامه حبيبته السّابقة خَوْلة، فتخيلها تقبل به زوجًا بعد رحيل زوجته، لكنّهَا لم تغير من قناعتها شيئًا، ولم يجد ما يسلي به حزنه ويُسكّن ألمه، فأخذ يزورها إذا هجعت العيون، ويحمل على عاتقه إليها ما تحتاج إليه من ملبس ومطعم، وهو يقول في خلده: «ليس لنا فيما يريده الرّبّ حُكم، ولعلّ مواساتي لهذه الأرملة ويتيمتها ما تبقى لي في هذه الحياة، الآن أدركت حجم معاناتها، ومسؤوليّة رعاية يتيم».

خطر في خاطره أن يُكفل خَوْلة تربيّة ابنه بشار ويجعل لها مصروفًا تَسُدّ به حاجتها، إلا أنّ (ماريا) وهي الأخت الشّقيقة لزّوجته ماتيلدا تبرعت برعاية ابن أختها الصّغير، وحملها على ذلك الشّفقة ومحبتها لشقيقتها الرّاحلة، رأى في ماريا جمالًا ساحرًا وقد يأس من الزّواج بخولة، ففَكّر أن يخطبها حين لمس فيها غاية الشّبه بأختها ماتيلدا، غير أنّه رأى زوجته في المنام وقد طارحته الحُبّ والوفاء، هنا أفاق وأجهش بالبكاء، وأقسم بِدَمّ المسيح أن لا يتزوج بعدها أبدًا وأن يبقى طيلة حياته وفيًا لزوجته الرّحالة العزيزة، أدركت ماريا رغبته بها في مطلع الأمر، ثُمّ أنّها رأت منه الجفاء، فعرفت أنّه محض وفاء لأختها فأكبرت فيه هذا الصنيع وهذه العاطفة.

ظـلّ دجـوار ينفـق علـى خَوْلـة ويتيمتهـا نَـدَى، وعلـى ماريـا وابنـه بشـار، حَتّـى جـاء ذلـك اليـوم الـذّي تعـرق فيـه بدنـه علـى غيـر عادتـه، فلـم ينقـض سـواد ليلتـه تلـك إلا وقـد وافـاه الأجـل، ليظـلّ بشـار يتيـم الأب والأم، هنـا تضاعفـت مسـؤوليّة ماريـا أمـام هـذا الصّغيـر، الـذّي لا تـدري كيـف لهـا أنّ تربيـه دون معيـن؟

الباب

2

الفصل الثاني

(١٣)

رِيَاحٌ بَارِدَة

ظَلّت ماريا وفيّة لأختها ماتيلدا، في رعاية ابنها بشار، رغم أنّ رحيل دجوار أصابها بنكسة كبيرة، فلقد كان سَخِيّ العطاء معها ومع الصّغير، آلت على نفسها أنّ لا تحرمه من أيّ شيء وكأنّه ابنها وأشَدّ، كانت مديمة لتلاوة آيات الكتاب المُقَدّس، تتأمل صفحاته وتنعش به قلبها، وتتوقف طويلًا حين تقرأ: (وحسب الظّلم نحو اليتيم ذنبًا فظيعًا)، (وافتخر أيوب بإنقاذه اليتيم)، هنا كان يجرفها التّأمّل إلى الانصهار لرعايته، خشية أن ينالها عقاب الاستخفاف بحق اليتيم الذّي هو وصيّة الرّحمن، وعندما جاءها الخاطب يخطب يدها لم يدخل قلبها الفرح كما داخلها الخوف والخشية من ضياع هذه الأمانة التّي وقعت على عاتقها، لهذا وضعت لزّواجها شرطًا لا تحيد عنه، وهو أن يَظَلّ هذا الصّغير في حيازتها ورعايتها، لم تكن ماريا بأقل من شقيقتها حُسْنًا وبهاءً، لذا رضخ الزّوج لطلبها، وأسرع يبني بها بيته الزّوجيّ كما تهوى وتُحِبّ، ظَنّت أن هذا الزّواج سيسهل عليها المتاعب، إلا أنّه فاقم عليها الدّوائر والأتعاب، كبر حين

ذاك بطنها لتزف لزوجها بشارة الانجاب، لم يرق له بقاء بشار الذّي سيكلفه المزيد من النّفقات، هنا قالت له: «إنّ هذا شرط تشارطنا عليه، وأنّه طفل واحد»، هنا كشف لها عن بغيته إذ قال: «عليكِ أن تعرفي أنّ لي طفلة من طليقتي، وإنّي عازم على تربيتها، فـ (اليسا) ابنتي ومن صلبي أما بشار، فليس لنا بابن».

فاجأها بهذا الأمر الذّي خبأه عنها طيلة الأيام الماضية، وعندما لم تر أمامها حلًا، قالت: «لا مانع لديّ أن تأتي بابنتك اليسا، فالسّقف يحتضن الجميع»، وبالفعل احتضنتها وتعهدت بتربيتها على أكمل وجه، رغم اتهامه لها بالتّقصير لصالح ابن أختها بشار، تحاملت على نفسها رغم الحمل، حَتّى جاءت ساعة المخاض ورأت أنّهَا تموت، رمقت الإرث الذّي ستتركه وراءها ابن أختها وابنتها القادمة واليسا، فصمدت تتحمل آلام الطّلق والانجاب، وهكذا تمكّنت من تخطي العقبة ولم تأخذ كفايتها في الرّاحة رغم كونها نفساء، ثلاثة أفواه ينتظرون الطّعام، ثلاث أجساد ينتظرن النّظافة والاستحمام والرّعاية، والرابع زوج لا يُقَدّر كلّ هذه الأتعاب، مرّت عليها الأيام ثقيلة عَصَيّة، حَتّى حدث ما كانت تخشاه وتخافه، وهو حمل جديد، صفعها الطّبيب ببشارته: «إن في بطنكِ جنين ينمو يا ماريا»،

أدركت أنّ جسدها استحال إلى شمعة تذوب وتتهاوى لخدمة من حولها، وهي من تحتاج لمعين، فلا تجد إلا صُرَاخ الزّوج الذّي يشتكي من تقصيرها وقلة اهتمامها به وببيته.

أربع أفراد تتكبد رعايتهم، إذ ليس لديها الوقت للاهتمام بنفسها وهناك ضيف مرتقب يُخَبّط برجله جدار المشيمة مستأذنًا بالقدوم. رغم الجحيم الذّي تعانيه إلا أنّ موسم الأزمات اقترب، حيث لاحت لها بوادر الطّلق والولادة، فلما حانت ساعة الإنْجاب دفعت بما تبقى من قوتها وكادت أن تهلك، أصَرّت على البقاء، ليس من أجل ابنتيها، بل لأجل يتيم تركه الله في حمايتها، ظَنّت أنّ زوجها سيستقبلها بالتّباشير بعد الإنْجاب، إلا أنّه استقبلها بموجة من الرّياح السّيبيريّة الباردة، حين كان يرجو أن يظفر بولد مُذَكّر، تشاءم من هذه البنت الثّالثة، وسافر تاركًا منزله غير آبِه بما تعاني من مشقة الرضاعة والنفاس.

لم تَطِل الأيام على غيابه، حَتّى وافاها النّبأ قبل وصوله إليها جثة هامدة وجنازة محمولة على الأعناق لا حركاك فيها، فقد أدركته منيته في مكان إقامته، أعلنت الحداد عليه، وندبت حظها حين رأت أنّهَا التحقت بركب الأرامل متشحة بالسّواد، عَصّبت رأسها لعلّ الألم تحجزه من الانجراف لقلبها الذّي ما

عـاد يحتمـل شـيئًا، فأمامهـا مسـؤوليّة تربيـة أربـع أطفـال، وليـس لهـم معيـل سـوى اللـه. بـدأ بشـار يلعـب مـع شـقيقاته الثّـلاث، وخالتـه ماريـا تقـول لهـنّ: «إنّ بشـار أخوكـنّ»، ثـم تشـير إليـه قائلـة: «وهـؤلاء أخواتـك»، رأى بشـار ذات يـوم مفتاحًـا فقـال لخالتـه: «أمّـاه، مـا هـذا المفتـاح؟».

(١٤)

أَزْمَةُ الجِيَاع

بعد وفاة شمعون زوجها الرّاحل، بدأت الأزمة الاقتصادية تتضاعف، فكيف تتمكن من سَدّ أفواه أربع أيتام؟، شرحت للقس في الكنيسة ظرفها، فَرَتّبَ لها مُرَتّبًا شهريًّا من الصّندوق المُخَصّص لدعم الأيتام والأرامل، لم يكن هذا الدعم يَسُدّ الحاجة، لهذا سعت للتّقتير على نفسها وصرفت ما لديها في الأساسيات، ثم أنّ الفكرة لاحت لها حين اشتَدّتْ بها الوَطأة، وهي أن تردّ اليسا إلى أمها ميراي التّي تعيش في بعلبك، تَمَكّنت بعد جهد أن تشرح لها ظرفها وأنّ شمعون لم يترك لها شيئًا، وإنّ صدقات الكنيسة لا تَسُدّ الرّمق، أخذت ميراي ابنتها وهي في شوق، بعد أسبوعين ردّت اليسا إليّهَا حين رفض زوجها الحاليّ استقبال ابنتها، ووقعت في مشكلة معه بخصوصها، ولأجل هذا رتبت ميراي لماريا مُرَتّبًا لرعايتها ووضعت لها مصروفًا ريثما تحلّ الأزمة مع زوجها الذّي لم يرق له استقبال ابنة ليست من صلبه.

أدركت ماريا أنّ حركتها وَلَدّت لها بعض المال، فحمدت الله وسألته الرّأفة والرّفق بهم، رأى بشار في حلمه ذات ليلة أنّ شمعون زوج خالته يقول له: «أفتح الباب»، فَلَمّا استيقظ لم يفهم أيّ باب يعني؟، وما الذّي يقصده؟، فتساءل بشار في نفسه: «أيّ باب عليّ أنْ أفتحه؟»، فَتّشَ في البيت فرأى أنّ جميع الأبواب مفتوحة، وليس لها أيّ قفل، لعب مع الصّغيرات لعبة البحث عن الباب المخبوء، فظلّت الأحْجِيّة قائمة لا حلّ لها، فلما أخذ يعبث بالمفاتيح، رأى أنّ بين المفاتيح مفتاحًا لم يره من قبل، فقال لخالته: «أمّاه، ما هذا المفتاح؟». لمعت عيونها حين سألها عن هذا المفتاح بعينه، فقالت له: «إنّ هذا المفتاح لك، وستأخذه إذا أصبحت كبيرًا»، أجابها باعتداد: «وأنا اليوم كبير، ألا ترين قوتي؟»، ضمته إلى صدرها وقالت: «إنّك كبير في عين خالتكَ يا بشار على الدّوام، ولك أن تجربه»، ثم أشارت إليه أنّ هذا المفتاح للمكتبة التّي وَرّثها إيّاه أبوه دجوار، انطلق بشار بعدما سَرد عليها رؤية شمعون والباب، فقالت في نفسها: «لعلّ شمعون أطلع على سغبنا فأشار لبشار أن يفتح المكتبة».

فتح بشار باب المكتبة بصعوبة بالغة، فلقد طال على القفل الأمد، فهطل عليه الغبار وتناثر فوضويًا تحت أشعة الشّمس،

أخـذ يَكُـحّ ويسـعل وهـو يبعـد الـرّذاذ المتطايـر حولـه، فتـح حدقتيـه جيـدًا ليـر مكتبتـه مغطـاة بالتّـراب، وكأنّهَـا شـهادة قبـر لا يـزور قبرهـا أحـد، رمـق صفـوف الكتـب المطليـة بالغبـار: السّـقف، الأرض، المكتـب، الرفـوف، كلّ شـيء محشـور بهـذا الطّـلاء الـذّي يجلـب الكآبـة والسّـعال، جلـس علـى مقعـد أبيـه الـدّوار، وأخـذ يتمايـل بـه يمينًـا وشـمالًا وكأنّـه شـخصية مرموقـة لشـركة كبيـرة، أخـذ يَكُـحّ حيـن ابتلـع نسـمة مُلَوّثـة، ثـم تكلـم ليديـر اجتماعـه الخـاصّ، اعتبـر الكتـب جمهـوره وأعضـاء دائرتـه، أنـس بهـذا المَحَـلّ الـذّي قالـت لـه خالتـه: «إنّ هـذه المكتبـة لـك أنـت، وهـي ورثـك مـن أبيـك»، اسـتاء أنْ يَظَـلّ ورث أبيـه بهـذه الحالـة المأسـاويّة الفظيعـة، هنـا قـرر أن يكنـس المكتبـة.

عشـرات مـن بيـوت العناكـب قَطّعهـا وهدمهـا فـوق رؤوسـها، وبسـطوة غاضبـة أخـذ يدهسـها، كمـارد اسـتبد بـه الجنـون، رغـم الجهـد الكبيـر الـذّي بذلـه إلا أنّ الغُبَـار لا يـزال هـو المسـيطر والحاكـم، نوبـة سـعال حَـادّة عصفـت بـه حيـن تطايـر الـرّذاذ الغبـاريّ، فخـرج يستنشـق الهـواء فـي الخـارج.

لمحـه جارهـم أبـو إيـاد، وقـال لـه: «هـل قـررت أن تفتـح المكتبة أخيـرًا يـا بشـار؟»، وحيـن رآه عـازم علـى تَنظّيفهـا، قـال لـه: «إن أبـاك

كان يستعير مني خرطوم الحديقة لتنظّيف المكتبة»، وما هي إلا لحظات حَتّى التّحق أبو إياد يُآزره في حملة التّنظيف، قال له مجددًا: «مَتّى ستباشر البيع يا بشار؟»، لم يخطر في عقله أنّه سيبيع شيئًا، فلما لمعت الفكرة في رأسه، قال في سِرّه: «ومن سيشتري كتابًا طلاه الزّمان بغباره؟»، انتهى أبو إياد من مهمته وأقفل صنبور الماء ورحل، ولم ترحل عن بشار فكرة البيع، هنا جمع فريق الفتيات معه: (اليسا، ولورين، والصّغيرة شيري)، قال لهم وفي يده صَفّارة: «إذا سمعتم صوت الصّفير سيبدأ السّباق، من يمسح كُتُبًا أكثر هو الفائز؟»، بدأت المسابقة وطلا الغبار وجوههم وملابسهم، ولم يتمكنوا من إنجاز ربع المكتبة، رمق بشار حال المكتبة التّي يريد أن يبعثها من الرّميم، وقال: «لَدَيّ الحَلّ».

(١٥)

البَابُ المُغْلَق

رمق بشار حال المكتبة التّي يريد أن يبعثها من الرّميم، وقال: «لدَيّ الحَلّ»، في اليوم التّالي غير اللّعبة وقسم الفريق إلى فريقين، كان من نصيبه ابنة خالته الصّغرى شيري، أما غريمتاه فكانتا كلًا من (اليسا و لورين)، صَفّرَ عاليًا، وبدأت حملة التّنظيف على أشُدّها، أطَلّت ماريا على المكتبة فشاركتهم السّباق، شَكّلت فريقًا ثالثًا بمفردها، رغم أنّ الجميع كان متحمسًا إلا أنّ المنتصر كان هو الغبار، استسلم الجميع وألقوا المناديل والخرق من أيديهم، ورفضنّ مؤازرته، حَتّى خالته ماريا رجعت للمطبخ تَعُدّ لهم وجبة الغداء، وبينما هو يُفَكّر في حَلٍّ لمصارعة الغبار، نظر إليه ابن جارهم إياد، وقال له: «ماذا بك يا بشار؟»، عرض عليه قصته والمشكلة الواقع بها، فقال له: «دعنا نجمع صبيان الحي، ونرى ما بوسعنا أن نصنع؟»، استطاع كلّا من إياد وبشار جمع ثمانيّة أولاد، فلما عرض بشار الفكرة عليهم بدوا بتشكيل فريقين كلّ فريق يتكون من خمسة أفراد،

لـم يمـضِ مـن الوقـت إلا سـاعتين حَتّـى اندهـش بشـار مـن الكتـب الكثيـرة التّـي تَـمّ تنظيفهـا.

فـرح بشـار بهـذا الإنجـاز، الـذّي حققـه فـي لحظـات غامـرة، واسـتعار خرطـوم أبـي إيـاد مـرّة أخـرى، لتنظيـف واجهـة المَحَـلّ، تدفـق المـاء مـن الخُرطـوم كنافـورة شمشـون الرّوسـيّة، أبهـره قُـوّة المـاء المتصاعـد، فأرغـم الغبـار العالـق بالفـرار، وعبـر مكنسـة رفيعـة اسـتطاع أن يُنَظّـف لوحـة المكتبـة بعـد أنْ وقـف علـى كرسـي زاده طـولًا. غربـت الشّـمس وكانـت لـه رغبـة فـي البقـاء، أضـاء المصابيـح، وضغـط علـى القابـس الأخيـر، هنـا اتقـد النّـور فـي لوحـة المكتبـة الخارجيّـة فظهـرت ألوانهـا الزّاهيـة البراقـة، وكأنّ المكتبـة اسـتحالت إلـى مدينـة ملاهـي صاخبـة، قـرأ بشـار اسـم المكتبـة بتمعـن: (مكتبـة جـان جـاك روسـو)، أعـاد قـراءة الاسـم مَرّتيـن وثـلاث حَتّـى حفظـه، وهـو يتسـاءل: «مـن هـذا الرّجـل الغريـب؟، هـل هـو صاحـب والـدي؟»، لـم يَظـلّ هـذا الاسـم لغـزًا لبشـار، فـذات مَـرّة لمـع اسـم هـذا الفيلسـوف فـي غـلافٍ لكتـاب، قـرأ بشـار العنـوان: «أصـل التّفـاوت بيـن النّـاس»، وتحـت الاسـم مباشـرة وجـد اسـم المؤلـف: «جـان جـاك روسـو»، عثـر علـى كتـاب آخـر لنفـس المؤلـف كان اسـمه: (العقـد الاجتماعـيّ)، فعـرف بشـار

أنّ أبـاه أطلـق اسـم مكتبتـه علـى اسـم هـذا الفيلسـوف الـذّي أخـذ يبحـث عـن ترجمـة لـه فلـم يجـد، لكنّـه بعـد أيـام عثـر علـى كتـاب يتحـدث عـن جملـة مـن المشـاهير، كان مـن بينهـم هـذا الفيلسـوف الغامـض، فقـرأ السّـطور المكتوبـة عـن حياتـه فلمعـت عيونـه حيـن أدرك أنّـه مثيلـه فـي اليتـم تمامًـا إذ فقـد والدتـه فـي الأسـبوع الأول مـن حياتـه، تعلّـق باسـم هـذا الفيلسـوف حيـن رأى أنّ والـده غـرس فيـه مَحَبّـة القـراءة والمعرفـة، هطلـت مـن عينـه دمعـة سـاخنة، وقـال: «أنـت أفضـل حـالًا منـي يـا جـان، إذ لـم تفقـد أبـاك وأمـك مثلـي».

نظـر بشـار إلـى أكـداس الكتـب المزدحمـة فـي الرّفـوف، وقـال: «لـو كان أبـي هنـا لعلمنـي كمـا علمـك أبـاك»، قالهـا وهـو يمسـح دمعـة علقـت بيـن أهدابـه، وبينمـا هـو يسـير فـي المكتبـة لمـح بابًـا خلـف دولاب الكتـب، فتذكّـر رؤيـا شـمعون وقـال: «هـل هـذا الباب هـو المقصـود؟»، أمسـك بشـار بمقبـض البـاب لكنّـه لـم ينفتـح رغـم محاولتـه، فـأدرك أنّـه مقفـل، وقـال: «لا بُـدّ أنّ لـه مفتـاح»، أخـذ يُفَتّـش فـي أدراج المكتـب، حَتّـى وجـد جملـة مـن المفاتيـح، جَرّبهـا حَتّـى عثـر علـى المفتـاح المناسـب لـه، أزاح دولاب الكتـب عـن طريقـه، ودفـع البـاب المغلـق فانفتـح، رأى بشـار أنّ البـاب يقـوده إلـى سـلالم نحـو الأعلـى والظّـلام ينتشـر فـي المَمَـرّ بكثافـة، قـال:

«لا بُدّ لي من مصباح لأرى ما يقود إليه هذا السّلم»، تذكّر أنّه رأى مصباحًا يدويًا في أحد الأدراج، انطلق واستلّه من مكانه، وقرر اقتحام الظّلام، حينها رأى شبحًا أمام مدخل المكتبة، فتَجَمّدت أطرافه وعروقه وسقط المصباح من يده.

الباب

2

الفصل الثالث

(١٦)

طَرِيْقُ الثَّرَاء

تذكّر أنّه رأى مصباحًا يدويًا في أحد الأدراج، انطلق واستلّه من مكانه، وقرر اقتحام الظّلام، حينها رأى شبحًا أمام مدخل المكتبة، فتَجَمّدت أطرافه وعروقه وسقط المصباح من يده، لم يكن ذلك الشّبح إلا ابنة خالته لورين، فقال لها على الفور: «أخفتني يا لورين، ما الّذي جاء بكِ؟»، بهدوءٍ أجابته: «أمّي تقول لك الغداء جاهز، فلا تتأخر»، طمأنها ثم قالت له وهي تبصر الباب: «من أين جاء هذا الباب؟، وكيف عثرت عليه؟»، قال لها وقد استردّ المصباح: «كان خلف خزانة الكتب»، ثم أشار نحو المفتاح وقال: «وقد عثرت على مفتاحه، وإنّي أفَتّش عن باب أمرني أنّ أفتحه أبوكِ»، هنا خافت لورين وتشبّثت بأطرافه، فقال لها بشار: «هل ستأتين معي؟!»، هزّت رأسها موافقة رغم خوفها، فأخذ الضّوء يتراقص من المصباح عبر درجات السّلم، لمح الغبار يتطاير تحت أضواءه فبدده بيده، وحين بلغ الدّرجة الأخيرة، أكتشف أنّ فوق المكتبة مكتبة أخرى، بحث عن قوابس الإضاءة وأشعلها، فإذا فيها العديد من

الرّفوف المزدحمة بالكتب، فقال: «ما شاء الله، لم أكن أعرف أنّ للمكتبة طابق علويّ»، ظَلّ بشار يواظب على فتح المكتبة ليلًا ونهارًا، يصلح ما أمكنه اصلاحه، وذات مَرّة دخل عليه رجل يرتدي نَظّارة سميكة، أخذ يُقَلّب الكتب ويتصفحها، فَلَمّا قضى من الوقت شطره، قال لبشار: «بكم هذا الكتاب؟»، تذكّر أنّ على كلّ كتاب سعرًا، فلَمّا أبلغه السّعر، دفع الرّجل المبلغ لبشار، وقال: «رغم أنّ هذه الطّبعة قديمة، ألا أنّها جيدة»، فرح بشار بهذا المبلغ الذّي دخل في جيبه، فهرع لخالته يروي لها الحكاية، شجعته على عمله وقالت له: «إنّك ستكون ثريًّا عَمّا قريب»، لمعت الفكرة في ذهنه حين قال له الرّجُل ناقدًا: «إنّ هذه الطّبَعة قديمة»، فقال: «عليّ أن أستبدل القديم بالجديد»، ثُمّ جال في ذهنه: «ولكن كيف؟»، لم يبلغ الطّريق الذّي يريده، فظَلّ التّساؤل حبيس ذهنه.

رأى نفسه أنّه يجهل الكثير من المعلومات وأنّ الزّبائن تسأله بوصفه خبير المكتبة، وكثيرًا ما تخرج الإجابة منه: « لا أدري، لا أعلم»، حَتّى خجل من نفسه أن يظلّ جاهلًا في مهنته التّي يمتهنها، عندها خصص له دفترًا وأخذ يُسَجّل أسماء الكتب ومؤلفيها، شَقّ عليه الأمر، ومع ذلك وضع له جدولًا لا يسأم

منه، وفي رأسه حيلة التّسلّي بالمعرفة بدلًا من جعلها له عبًا ووظيفة، لم يكن يعلم لَذّة القراءة حَتّى زاولها، في مطلع الأمر كان عدد الزّبائن قليل، رغم هذا وجد متسعًا لتثقيف نفسه بالقراءة، مع توالي الأيام تتالت عليه الزّبائن وتظافرت وأخذت من حصة قراءته، قرر أن يفتح الأبواب باكرًا وأن يطيل البقاء في المكتبة لوقت متأخر من اللّيل، ليتسنى له قسط من الوقت للقراءة، رغم ذاك لم تنقطع الزّبائن التّي تخطف وقت قراءته، لم يبتئس واستبشر حين لمح أن أدراج المكتب بدأت تمتلأ بالنّقود، وهو دليل نجاح، استطاع أن يدفع فاتورة الكهرباء، وظلّ في حيازته الكثير.

استمر بشار على كنس المكتبة بشكل دوريّ، وأخذ يُنَظّف الغبار الواقع فوق الكتب بشكل مستمر، أثلج صدره غاية الإثلاج حين أقبل طالب من طلاب الدّراسات العُليا وابتاع له خمسة عشر كتابًا، قال أنّه يحتاجها لكتابة رسالة الماجستير، أخذ بشار يدوّن أسماء الكتب التّي يريد الرّجل شراءها، دوّن في السّجِلّ اسم الكتاب الأول: (فلسفة العلم: مقدمة معاصرة، أليكس روزنبرغ)، الكتاب الثّاني: (نفي اللّاهوت، ميشيل أونفراي)، أنهمك طالب الماجستير في جمع كتبه، ونهمك

بشار في مطالعة كتاب أونفراي من باب الفضول، أخذ يتصفح الكتاب ليتأمّل عَمّا يتحدث، فوجده يتحدث في قسمه الأول عن: (تاريخ الملحدين والمسيحيّة)، أما في قسمه الثّاني فكان: (يُحلّل الدّيانات الإبراهيمية الثّلاث، ويذكر أبرز سماتها المشتركة)، أما القسم الثّالث فقد أدهشه حين وجد أنّ أونفراي: (يُشَكّك في وجود يسوع، وهناك من يستغل هذه الشّخصية ليقود العالم!!)، تفاعل بشار مع هذا الكتاب ورأى أنّ أونفراي يربط بين السّلطات السّياسيّة والأديان السّماويّة، ثم وجده يرصد أبرز الانتهاكات التّي تعرضت لها الأديان، وأدهشته جرأته في سرد متناقضات الكتب المُقَدّسة، وقال بشار في نفسه: «لن أبيع هذا الكتاب، فهو ثروة لن أفرط بها».

(١٧)

البَابُ السِّرِيّ

أطـلّ بشـار علـى الزّاويـة التّـي أخـذ منهـا طالـب الماجسـتير كتـاب (نفـي اللّاهـوت)، فـرأى أنّ لـه نسـخة ثانيـة احتفـظ بهـا لنفسـه، وأخـذ يـدوّن أسـماء الكتـب الأخـرى التّـي سـتباع: كتـاب: (مـا وراء الأوهـام، إيريـك فـروم)، وكتابيـن آخريـن لـه، همـا: كتـاب (الهـروب مـن الحريّـة) وكتـاب (التّحليـل النّفسـيّ والدّيـن)، اسـتمر فـي تدوّيـن الأسـماء حَتّـى قَيّـد الكتـاب الأخيـر: (أثـر العلـم فـي المجتمـع، برتراند راسـل)، دفـع بشـار الكتـب للمشـتري، واسـتلم مبلغًـا جيـدًا لـم يكـن يَتَصَـوّر أنّ بإمكانـه توفيـره فـي لحظـة خاطفـة، تفطـن أنّ انطباعـات وجـوه الزّبائـن مؤشـرات مهمـة علـى أهميـة الكتـاب مـن عدمـه، لحـظ بشـار أنّ بعـض العناويـن تطـرق مسـامعه كثيـرًا، وهـي مرغوبـة، لـذا وضـع ملاحظتـه ليوفرهـا لاحقًـا، بعـد مـرور ثلاثـة أيـام مـن الصّفقـة الرّابحـة مـع طالـب الماجسـتير، حضـر المكتبـة مجموعـة مـن أصحابـه ينتمـون لـذات التّخصـص، وبرفقتهم دكتـور مـادة الفلسـفة الـذّي أبـدى سـعادته بالاسـم المختـار للمكتبة، وأثنـى علـى هـذا الـذّوق الـذّي راق لـه، ثـم أخـذ يحـاور بشـار،

قائـلًا: «هـل تعـرف مـن هـو جـان جـاك روسـو؟»، أجابـه علـى الفـور بثبـات: «نعـم، هـو كاتـب وملحـن وفيلسـوف، عـاش فـي القـرن الثّامـن عشـر، مـن أشـهر أعمالـه العقـد الاجتماعـيّ»، رغـم بسـاطة الإجابـة، إلا أنّ الدكتـور أعجـب بإجابتـه، فقـال لـه: «ومـاذا تعـرف عنـه أيضًـا؟»، اسـتحضر مـا قـرأه عنـه وأجـاب: «هـو مـن مواليـد سويسـرا، فقـد أمـه بعـد فتـرة وجيـزة مـن ولادتـه، فربـاه أبـوه فـي حـي الحرفيّيـن حَتّـى بلـغ العاشـرة مـن عمـره»، «عظيـم، ومـاذا أيظـن؟»، «سـافر إلـى باريـس، واختـار الكتابـة لـه مهنـة»، «ومـن شـجعه علـى القـراءة؟، يـا...»، «اسـمي بشـار، شـجعه أبوه حيـث كان يقـرأ لـه قصـص المغامـرات طـول اللّيـل»، ابتسـم الدّكتـور وأذهلتـه معرفتـه، فقـال لـه: «وأنـت يـا بشـار، مـن شـجعك علـى القـراءة؟»، بوفـاء أجابـه: «إنّ أبـي مـن شـجعني عليهـا حيـث وَرّثنـي كلّ هـذه الكتـب، وليـس أهـم مـن المحافظـة عليهـا إلا قراءتهـا»، هنـا أطلـق عليـه الدّكتـور لقبًـا لـم يمحـى مـن حياتـه حيـن وصفـه بـ (النّابغـة).

بعـد زيـارة دكتـور الفلسـفة للمكتبـة، لاحـظ عـددًا كبيـرًا مـن طـلاب الجامعـة يزورونهـا، فتيَقّـن أنّ الدّكتـور هـو المُـرَوّج الفعلـيّ لزيارتهـم، حيـث سـمعهم يتهامسـون سـرًّا، وهـم يُشـيرون إليـه بـ (النّابغـة)، وبينمـا هـو يمسـح الغبـار عـن بعـض الكتـب ذات مـرّة

أطلّت عليه فتاة حُلوَة المبسم بَهيّة المظهر، رقيقة السّكنات بارعة جذابة، رقص لمقدمها قلبه وخجل أنْ تَطُلّ عليه والمكتبة لا تزال في طور الإعداد، فأمامه سلسلة من التّطويرات لم تكتمل، بِرَقّتِها الفاتنة أخذت الفتاة ترمق الكتب، تمنى أن يعيد تنظيف الكتب لأجلها، واقترب منها خجلًا وقال: «نرجو العذر، فالمكتبة في طور التّرميم»، هنا سألته عن كتاب: (هكذا تكلم زارادشت)، وقالت: «هل هذا الكتاب لديكم؟»، أجابها بطريقة دراماتيكية: «هكذا تكلم زارادشت، للفلسوف الألمانيّ فريدريك نيتشه، هو ليس موجود هنا، أقصد أنّه موجود في الطّابق العُلوِيّ»، لم تتوقع أنّ للمكتبة طابقًا علويًّا، فهرع من فوره يحرك الدّولاب ويكشف لها عن المخبأ السّري للباب الموصل إليه، وسرعان ما أعطاها إياه، ووقع الثّمن في راحته وغادرت دون أن تغادر عن عقله، خطفت قلبه معها حين رحلت، فتلمس جراحَ ما خَلّفته إطلالتها البهيّة.

تضرجت وجنتاه خجلًا، وهو يقول: «ينبغي أن أهيئ المكتبة لتكون لائقة بزيارتها المقبلة، ولا بُدّ أنْ تعود»، استعار من خالته بعض المبالغ وقرر طلاء الطّابق الأرضيّ، ثم قرر تغيير ورق الجدران الذّي بات عتيقًا مُغبّرًا لا يليق، وبينما هو ينزع الورق

القديم، أدرك أن خلف ورق الجدار باب لم يكن ليراه، استخرج مشرطًا حادًا من أحد الأدراج، وبدأ يحدد معالمه، وقال: «لا ريب أنّه باب شمعون؟، وعليّ أنْ أفتحه»، تَمَكّن من فتح الباب عبر تجربة عدة مفاتيح، هنا تسلّل الضّوء إلى العتمة، وأدرك أنّ المَمَرّ يقود لسلالم سفليّة، وقال: «هل هناك قبو في الأسفل؟»، اجتاحه خوف شديد وهو يهبط السّلالم مستعينًا بالمصباح اليدويّ.

(١٨)

مَشَاعِرُ قَلْب

تَمَكّـن مـن فتـح البـاب عبـر تجربة عـدة مفاتيح، هنـا تسـلّل الضّوء إلـى العتمـة، وأدرك أنّ المَمَـرّ يقـود لسـلالم سـفليّة، وقـال: «هل هناك قبـو فـي الأسـفل؟»، اجتاحه خوف شـديد وهو يهبط السّـلالم مسـتعينًا بالمصبـاح اليـدويّ، تَمَنّـى أن تكـون لوريـن برفقتـه لتقاسـمه بعـضَ مخاوفـه، لكنـه ألقـى بالخـوف وراءً حَتّـى بلـغ الدّرجـة الأخيـرة، هنـا هَجَـم عليـه طائـر أسـود شـرس أوقعـه علـى الأرض، وكاد أن يدمـي وجهـه، أدرك بشـار أنّ الطّيـر مجرد خُفّاش يسـكن في الطّابق السّـفليّ، فتسـاءل متعجبًـا وهـو يلتقط أنفاسـه: «ماذا يصنـع الخُفّاش هنـا؟، ومن أيـن أتـي؟»، أشـعل الأضـواء بحـذر، حينهـا رأى العديـد مـن الكتـب المتناثـرة هنـا وهنـاك، يجتاحهـا الغبـار مـن كلّ مـكان، ولا متنفـس لها سـوى فتحـة صغيـرة تَطُلّ علـى الخـارج، فتيَقّـن أنّهَـا معبـر الخُفّاش.

أخـذ يتأمّـل أكـوام الكتب التّـي غَيّـب الغبـار معالمهـا وأحالها إلى تـراب، وقـال: «لا ريـب أنّ هـذا مسـتودع يَخْـزّن فيـه والـدّي بعـض الكتـب»، ثـم قُدِحَ في ذهنـه فكرة أن يُنَظّفهـا ويبيعها في أسـواق الجُملة ويسـتبدلها بالجديـد، لـم ترهقـه عمليّـة التّنظيـف فلقـد كان معظمهـا

مغلفًا بأكياسٍ بلاستيكية والأخرى محفوظة في صناديق كرتونيّة، باع الزّائد منها واحتفظ بالآخر، وَرَدّ لخالته المبالغ التّي استعارها وبدأت عملية الطّلاء.

اختار ورق جدران أبيض مزخرف بالورد الزّهريّ، انتخبه بدقة حين توقع أنّه يروق لغزالته التّي خطفت قلبه، ثم استبدل الرّفوف القديمة برفوف بيضاء جديدة، وأبدل السّقف الرّطب الذي تفوح منه رائحة العفن بسقف أنيق ناصع وثبت فيه الأضواء اللّامعة، تغير كلّ شيء، وقال وهو يُسَلّي نفسه: «هكذا أصبح المكان جاهزًا لزيارة الملاك؟»، ثم تساءل مبتسمًا: «ماذا ستقول لو عرفت أنّ كلّ ما حدث من أجل استقبالها؟»، تحسر واستبدّ به الألم حين لم تأتِ فاتنته وخابت ظنونه وكلّ الآمال، لم يكترث لغيابها الطّويل، وضع بعض اللّوحات التّرحيبية وانتخب بعض حكم الفلاسفة التّي تحث على القراءة واقتناء الكتب، يئس بشار من زيارة حوريّته النّوراء، لكنّها جاءته تمشي على استحياء، وهي لا تدري أنّ زلزالها السابق هو الذي أطاح بالمستعمرة البائدة وأنهض مدينة الأنوار والألق، كلّ هذه التّغيرات لم تحلّ إلا حين حَلّت زيارتها ولأجلها.

اقترب منها في سرور وقال: «هل لي أن أخدمكِ؟»، تَوَرّدت خدودها وأشارت قائلة: «هل لديكم كتاب: (ما وراء الخير والشّر،

للفيلسوف فريدريك نيتشه)»، أجابها: «كتب الفيلسوف نيتشه كانت في الطّابق العلوي، وقد نقلتها إلى الطّابق السّفليّ، استعدادًا للطّلاء»، وقبل أن يهبط لجلب الكتاب، قالت له: «وهل لديكم كتاب: (الكينونة والعدم، لجان بول سارتر)»، ثم أخرجت ورقة وقالت: «إنني أرغب في عِدّة كتب، بعضها مدوّن هنا، والبعض الآخر لم أدوّنه»، ثم أضافت: «هل لي أن ألقي نظرة على الطّابق السّفليّ؟»، خجل من رفض طلبها، وكاد أن يقول: «المكان غير مهيئ»، لكنّه قال لها حتى لا يخيب رغبتها: «يمكنكِ، إذا أحببتِ»، هبط السّلالم وهي تسير خلفه في خجل، اضطرب قلبه لكونه سيختلي بها عن العيون في مكان لا يصل إليه أحد، أدركت اضطرابه وتسارع نبضه، واعتمل ذات النبض في قلبها كالعدوى، لكنّها تجاهلت هذه المشاعر لبلوغ غايتها وهي امتلاك الكتب المستهدفة التّي تريد.

أبصرت الكتب التّي ملأت القبو، وقالت له في سرور: «إنّ الاطّلاع على هذه الكتب يحتاج لثلاثة أيام متواصلة»، أجابها بدماثة: «أصنعي ما تشائين، وأنا سأستخرج لكِ ما في الورقة»، رأت كثير من الكتب التّي تستهويها، كتاب (تاريخ الفلسفة الغربيّة، لبيرتراند راسل) ورواية (الأخوة كارامازوف، لفيودور دوستويفسكي)، ورواية (عالم صوفي، لجوستاين غاردر)، وغيرها الكثير، قالت له: «هل لديكم

كتـب لكيركيجـارد؟»، أجابهـا: «نعم»، وأظهـر لها كتابه المسـطور على غلافـه: (الخـوف والرّعـدة)، وضع الكتـاب بيّن يديها؛ ثم اعتـذر لها أنّ زبونًـا فـي الأعلى حين سـمع صـوت الجرس، وقـال: «دقائـق وأعود».

أخـذت تتنقـل بيـن الكتب كما تتنقـل الفراشـة بين زهـور الحدائق، لحظـات حَتّى هبط إليها يكسـوه الخجـل من الانفراد بهـا، وكان الوقت قـد تأخر، وهي قد نسـت نفسـها في تصفـح كتب لأول مَرّة تراهـا، تَمَنّى أنْ تَظَـلّ معـه حَتّـى الصّبـاح، كان يجيبهـا عـن كلّ سـؤال حَتّـى أتـم لها تجهيـز كلّ مـا طلبتـه، صعـدا عنـد ذلـك للأعلى وقـرأت لوحـة أوقات الـدّوام، فلما اكتشـفت أنّهَا قـد تجاوزت الحَـدّ؛ اعتذرت إليـه فبادرها: «أنـا فـي خدمتكِ فـي أيّ وقت».

الباب

3

الفصل الأول

(١٩)

الطَّابِقُ السُّفْلِيّ

صعدا عند ذلك للأعلى وقرأت لوحة أوقات الدّوام، فلما اكتشفت أنّهَا قد تجاوزت الحَدّ؛ اعتذرت إليه فبادرها: «أنا في خدمتكِ في أيّ وقت»، تَوَرّدَت وجنتاها كوردة صباحيّة وانصَبّ حديثه على قلبها كماءٍ بارد، وقد داخلها ما داخله من التّوق والرّغبة في البقاء، فقالت لتكشف عَمّا يستهويه من كتب: «كتب المكتبة كثيرة، فهل تنصحنا بكتب مُعَيّنة؟»، أجابها حين أدرك أنّهَا تميل للكتب الفلسفيّة قائلًا: «هل تقصدين الكتب الفلسفيّة؟، أم الكتب بوجه عام؟»، أجابته بمقولة تحفظها للأديب الرّوسيّ أليكسي مكسيموفيتش بيشكوف المعروف باسم (مكسيم غوركي): (لا تستطيع أن تفعل أيّ شيء بلا فلسفة، لأنّ كلّ شيء له معنى خفيّ علينا إدراكه)، فهم أنّها عاشقة الفلسفة بامتياز رغم أنّها في بداية الطّريق.

لم يرغب في تأخيرها حين رآها رمقت السّاعة في معصمها، فقال: «كثيرة هي الكتب الفلسفية الجَيّدة، ولكنّي أنصحكِ برواية (كانديد، لفولتير)، ورواية (الغريب، لألبير كامو)»، رغبت أنّ

تعرف عن هاتين الرّوايتين قبل الشّراء، إذ قالت: «عَمّا تتحدث الرّوايتان؟»، أدرك أنّه لا يمكنه اختزال روايتين في سطر، لذلك قال: «إنّ لرواية كانديد لفولتير، اسم آخر هو التّفَاؤل، وفيها يَتَبَنّى فولتير عدم التّفاؤل المُفْرّط، فهو يرى أنّ العالم مليء بالشّرور، الذّي يجدر أنْ لا نسرف من التّفاؤل فيه، وكأنّه يَرُدّ على جان جاك روسو في رسالته، أما رواية الغريب لألبير كامو، فهي تندرج ضِمّن الفلسفة العبثيّة ويطلق على هذا الصّنف من الأدب بـ (الكُومِيديا السّوداء) لامتلائها بالمتناقضات اللّامنطقيّة».

راق لها اختياره، فقالت له: «إذًا لي زيارة لشرائهما غدًا، فالحِمْل ثقيل»، لم تقصد بحديثها أنّ تطلب منه المعونة، ولكنّه أدرك ما قالته؛ فقال لها على الفور حين تأكد أنّها ستحمل الكتب بمفردها: «سأنقل لكِ الكتب إذا سمحتي»، خجلت من لطفه معها، ونقل لها الكتب بعد أن أخذ منها المبلغ، وقال لها حين انطلقت بهما السّيّارة، مقولة حفظها لأحد الأدباء: «الفلسفة هي فن التّحدث عن التّفاحة بدلًا من أكلها»، احمَرّت وجنتاها خجلًا كالتّفاحة تمامًا حين ظنّت أنّه يسقط عليها رمز التّفاحة، دقائق حَتّى وصلت إلى المنزل وساعدها في حمل الكتب ومَدّ لها بطاقة تحمل اسم المكتبة وأرقام التّواصل معه، وقال: «احتفظي

بهـذه البطاقـة، وسـأجيبكِ عـن كلّ مـا تسـألين عنـه». أخـذت البطاقة منـه، وغادرهـا، ولـم يغـادر خيالـه عـن عقلهـا. نسـيت أنّ تقـول لـه كلمـة (الشّـكر)، بعـد كُلّ هـذا العنـاء الذّي تكبّـده من أجلهـا، فأبرقت إليـه برسـالة قصيـرة، تقـول له فيهـا: «شُـكرًا علـى المسـاعدة. نَدَى»، ردّ عليهـا مباشـرةً: «أنـا فـي خدمتـكِ. بشـار».

سـبح كلّ واحـد منهمـا فـي خيـال الآخـر، وغـرق كلّ منهمـا فـي صاحبـه، كلّ واحـدٍ تَمَنّـى أنْ يبرق للآخر رسـالة أخـرى إلا أنّ كليهما كان ينتظـر الفعـل مـن صاحبه فلـم يفعلا، ولـم تتراشـق الكلمات، مع ذلـك لـم تَبِـتْ القلوب إلا علـى ملامح من اسـتهوتها. فـي اليوم الذي تـلاه كان بشـار يرتقـب زيارتهـا فـي شـوق عـارم، كمـا وعـدت ومـع ذلـك لـم تـأتِ، فَلَمّـا شـارف وقـت المكتبـة علـى الانتهـاء، جـاءت إليـه كـوردة جوريّـة يُزَيّـن جيدهـا قـلادة اللّؤلـؤ، خالـج قلبـه حـرارة دفاقـة، فنهـض يسـتقبلها باشـتياق كبيـر، خجلـت وبـان الزّهـر فـي خدودهـا، لحفاوتـه بهـا، وأَخَفـت الخجـل بطلبهـا للكتب التّـي تكلم عنهـا بالأمـس، قـال لها وهمـا يهبطـان السّـلالم فـي الطّابق السّـفلي: «لـدي لـكِ كتـاب فلسـفي آخـر، هـو: (الجنـس الآخـر، لسـيمون دي بوفـوار)، قالـت له: «وعن أيّ شـيء يتحـدث هذا الكتـاب؟»، أجابها: «مـن اسـمه يعـرف، أنّـه كتـاب يتحدث عـن المـرأة، أو بالأحـرى عن

اضطهادها»، لم تكن في معرض القراءة عن النّسويات، لذا سألته: «وهل لديك كتاب غير هذا؟»، هنا بلغا الدّرجة الأخيرة، فهجم على نَدَى الطّائر الأسود الشّرس، صرخت من شِدّة الهلع، وعلم بشار أنّه الخُفّاش، فَضَرَبَه بالمصباح اليدويّ ليُدَافع عن حبيبته، فأجفلت من شِدّة الخَوْف وتشبّثت به.

(٢٠)

قِلَادَةُ اللُّؤْلُؤ

تغير لون نَدَى من شِدّة الفزع، ولم تكن تتوقع أن يهاجمها شيء، رغم الظّلمة التّي تسير فيها، وهي تستشعر الأمان بجوار من أحَبّت، قال لها بشار مواسيًا: «إنّها المرّة الثّانية التّي يُهاجمني، وإنّ خَلَاصُه على يدي»، أشار إلى ناحية الفتحة التّي يتسلّل منها الخُفّاش، وعمد إلى الفُرجة فسَدّها، حينها تناول كتابًا ذو غلاف أسود، وقال: «هذا الكتاب جدير بالقراءة، وهو لكارل بوبر، اسمه (المجتمع المفتوح وأعداءه)، هل سمعتِ عنه من قبل؟»، قالت: «لا، عَمّا يتحدث؟، ولماذا ترشحه؟»، أجابها، وهو يُقَلّب صفحات الكتاب: «إنّ بوبر مفكر نمساويّ جاد، قال عن كتابه برتراند راسل: (هذا الكتاب دفاع قوي وعميق عن اللّيبراليّة)»، سألته: «المجتمع المفتوح معروف، ولكن من هم أعداؤه في نظر بوبر؟»، أجابها: «إنّ بوبر يطرح ثلاثة أعداء للمجتمع المفتوح وهم كلًا من: (أفلاطون، وهيجل، وكارل ماركس)».

ظَلّ يجاذبها الحديث، وبالمثل فعلت، أخذ يعاملها بلطف وهي بقربه منشرحة، استشعر الرّاحة بجوارها وتَمَنّى أن تكون له زوجة

حين أدرك أنّه لا غنى له عنها، إلا أنّه قبل أنْ يطرح عليها فكرته عرف أنّهَا (مُسْلِمَة) وهو على غير دينها، قال لها في حزن عميق: «كانت لي أُمنيّة، تَمَنّيت أنْ تتحقق، ولكنّها لن تَتُمّ حَتّى في عالم المستحيل»، أجابته دون أن تعرف غايته وأمنيته: «هل تعلم ماذا يقول نابليون بونابرت عن المستحيل؟»، أجابها: «وماذا يقول؟»، قالت له وهي تعقد ذراعيها وكأنّها توبخه لعجزه: «لا توجد كلمة مستحيل إلا في قاموس الضّعفاء»، ثُمّ استدركت لتكمل عتبها: «إنّه يقول كذلك: (إنّ الرّجُل الذّي عقد النّيّة على الفوز لا ينطق كلمة مستحيل)».

تيقن أنّها لا تعلم نِيّته ولا أمنيّته، فقال لها ليجعلها تدرك ما أدركه: «كلّ كلامه صحيح، ألا أنّ أمنيّتي، من الطّراز المستحيل فعلًا، فهل لي أن أبوح لكِ بها؟»، ابتسمت وفهم منها القبول، فقال: «كانت أمنيّتي الزّواج منكِ»، تلون وجهها بألوان الشّفق والبنفسج، وقال: «إلا أنّ هذا لا يكون، فأنتِ مُسْلِمَة وأنا مَسِيحيّ»، صمتت ولم تجرأ على الكلام، وقالت: «هناك حَلّ واحد فقط»، ابتسم وتشوق لمعرفة ما لديها، إذ قالت: «الحَلّ أن ينتقل أحدنا لدين الآخر»، أجابها: «ألم أقل لكِ أنّ أمنيّتي مُستَحِيلة؟، فمن منا سيترك ديانته؟، ثُمّ إنّي لا أرضَ أن أجبر أحدًا أن يَتَخَلّى عن قناعته

لأجلي»، أجابته: «ولا أنا»، هنا نظر إليّهَا بِحُبّ وقال: «هل تعلمين أنّي أُحِبّكِ يا نَدَى؟»، طلا وجهها الورد والقرنفل، وقال: «هل تعلمين أنّ تَحَوّل المكتبة إلى هذا الحال بسبب زيارتكِ الأولى؟».

لم تتوقع أنّه سيكشف لها عن سِرّه، وانهمر حديثه عذبًا شفيفًا: «إنّ حُبّي لكِ، هو الحُبُّ المستحيل، فماذا أصنع لقلبي الذّي لا يرضَ بسواكِ بديلًا؟»، استشعرت صدق حديثه وَتَذَوّقت شَهِيّ عباراته، فلم تُفَكّر في المغادرة، ورمقت ناحية اليمين فرأت كتابين متجاورين الأول: (أشهر فلاسفة التّاريخ)، والثّاني: (مُعْجَم الفلاسفة)، فقالت على الفور: «ألا يوجد حَلًا عند هؤلاء الفلاسفة؟»، أجابها وهو في غمرة حزنه وألمه: «وهل تقبلين بحلول الفلاسفة؟، ودينكِ يمنع من هذا الزّواج؟»، لم تجبه بل سألته: «إذا كان هناك حَلًا، أمام هذه المعضلة، فما هو بظنّك؟»، أجابها على الفور: «أنْ نُغَيّر هذا»، وأشار لعقله، ردّت عليه: «لم أفهم»، أجابها: «الحَلّ أنْ تتغير العقول، ليَتُمّ ما هو مستحيل؟»، «وكيف والدّين يُحَرّم هذا الزّواج؟»، «ومن قال أنّ الدّين يُحَرّم هذا الزّواج؟»، ابتسمت له لكونها مسألة بديهيّة، فأعقب قائلًا: «لو كان مُحَرّمًا لما زَوّج النّبي ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وهو من الكُفّار»، أكمل حديثه: «ومن المعروف أنّه وقع أسيرًا في بدر،

وفدتـه زوجتـه بقـلادة أمهـا خديجـة»، هنـا التفتت نَـدَى إلـى صدرها وتبيّنـت أنّهَـا فقـدت قلادتهـا اللّؤلـؤ، فصرخـت: «قلادتـي!».

(٢١)

زِيَارَةٌ مُفَاجِأَة

التفتت نَدَى إلى صدرها وتبيّنت أنّهَا فقدت قلادتها اللّؤلؤ، فصرخت: «قلادتي!»، قال بشار: «رأيتكِ تضعين قلادة بَرّاقة، سحرتِ عيني عند دخولكِ»، أعقبت: «إنّهَا قلادة أمّي ليوم زفافها»، نهض بشار، وقال: «إنّه بسبب الخُفّاش اللّعين!»، ثم انطلق ناحية الدّرجة السّفليّة فهتفت نَدَى: «إنّهَا هناك»، تناولتها وحمدت الله على رؤيتها، وقالت: «لقد تأخر الوقت»، قال لها بشار وهو يرمق رفوف المكتبة التّي بدأت في تناقص: «هل لكِ أن ترافقينني في نُزْهَة ثقافيّة؟»، في تعجب قالتْ: «نُزْهَة!»، «في الحقيقة هي رحلة قد تستغرق ثلاثة أيام أو رُبَمّا تطول بعض الشّيء»، ابتسمت ورغبت أن تفاجأه بما يسره: «بالتأكيد يَسُّرُّني ذلك»، ثم تداركت لتخيب كلّ آماله: «لكنّ أمّي لن توافق حتمًا على هذه الرّغبة، لهذا أبحث لك عن شريك آخر»، قالتها وخرجت ناحية البوابة مغادرة، آلمه جفاؤها، لا سِيّما أنّهَا أمتنعت عن قبول فكرة الزّواج منه، قال لها على الفور: «هل تسمحين لي بإيصالكِ؟»، أجابته في تمنع: «الجَوّ جميل ويحلو ليّ المشي»، كاد أنْ يقول لها: «ولكنّ الوقت

تأخر»، إلا أن صدى صفقة الباب تناهى لمسامعه ولم يرغب بإزعاجها.

أقفل المكتبة وقبل ركوبه السّيّارة قال: «يا لها من عنيدة»، وتَفَطّن أنّهَا تريد أغاظته بطريقة التّمَنُع، رمق شجرة بالجوار فشاهد بُومَة بعيون صفراء واسعة الحدقتين لها نُهام صاخب، وحين عثر على حجرة بجواره سدد رميته على البُومَة دون اختيار، فلم تصبها، وحلّق الطّائر ناشرًا ذراعيه نحو البعيد، قال بشار في نفسه: «لماذا نتشاءم منه وهناك من يعشقه؟»، قالها وهو يتذكّر رواية (الرّقص مع البُوم)، ثم تذكّر كتاب (بول ريكور والفلسفة) الذّي ألفَتَهُ إلى أنّ الفيلسوف الألماني هيجل يطلق على الفلسفة بالطّائر المسائي (البُوم)، تذكّر أنّه رجع إلى المصدر في حينها، ليتوثق إذ كان كتاب (أصول فلسفة الحقّ) في حيازته، وقرأ ما دوّنه هيجل: «يبدو أنّ الفلسفة تصلُ متأخرة أكثر ممّا ينبغي بالنسبة إلى هذه المهمّة. فهي بوصفها (فكرة) العالم لا تظهر إلا حين يكتمل الواقع الفعليّ وتنتهي عمليّة تطوّره»، أخذ يقرأ حَتّى وصل إلى قول هيجل: «إنّ بُومة مِنيرفا لا تبدأ الطّيران إلا بعد أن يُرْخِي اللّيل سُدوله»، لم يفهم معنى كلمة (مِنيرفا)، فأخذ يبحث عن معناها، حَتّى توصل إلى أنّ (آلهة مِنيرفا هي آلهة الحكمة لدى الرّومان).

حيـن وصل بشـار إلى البيت وجـد خالته ماريـا مُتَوَعّكـة ومريضة، قـال: «هل هـو شـؤم البُـوم، أم جـزاء لعنتـه؟، أم مجـرد المصادفة؟»، ظَـلّ معهـا حَتّى بُـزُوْغ الفجـر يرعاها بعد أن أصَـرّ على أخواتـه بالنّوم، فـي الصبـاح سـاءت صحـة خالتـه ماريـا؛ فجمـع الفتيـات الثّـلاث: (اليسـا، ولوريـن، وشـيري)، وَقَسّـمَ عليهـن مهـام خالتـه، مـن طبـخ وغسـل وتنظيـف، وَتَكَفّـل بمرافقتهـا إلـى المستشـفى، فلـم يَتَمَكّـن مـن فتـح المكتبـة فـي يومـه ذاك، وهـذا مـا سـاء نَـدَى، التّـي أجـرت اتصالهـا عليـه حيـن تعجبت مـن إغلاقه علـى غيـر المعتـاد، لكنّه كان مرهقًـا وفـي نـوم عميـق، فلـم يُجبها، قالـت نَـدَى: «هل قسـوت عليه ليلـة البارحـة؟»، تماثلـت خالتـه للشّـفاء ووجد فيـه طاقـة إيجابيّة غير معهـودة، وشـعر أنّ اللـه أمَـدّه بالبركـة، فعوضًـا عـن فتـح المكتبة قرر أن يـزور حبيبته.

تَـرَدّد بيّـن أنْ يجري لهـا اتصـالًا أو أن يفاجئها بزيارة غيـر متوقعة، راق لـه قلـب المعـادلات، واندفـع ليرتطـم قلبـه بصدره، وهـو يقول: «فـي الحُـبّ يرخـص كلّ شـيء»، طـرق البـاب دون موعـد، وتناهـى لـه صوتهـا مجيبًـا مـن الدّاخـل؛ فنبض قلبـه بالحُـبّ والشّـوق، وقال: «مـاذا سـيحدث حين ترانـي؟». انبهرت حيـن رأته أمام بابهـا، وقالت: «بشـار!!، مـا الذّي جـاء بك؟»، أشـار لها نحـو اتصالها، قائـلًا: «وَمَن

أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة»، أحَمْرّت الوجنتان، وقالت: «كان اتصالي عليك خطَأً»، فأعقب: «إنّي أتيتُ لزيارة الخالة»، وكان يقصد بها أمها خَوْلة، فقالت: «إنّها مشغولة، ...»، ولم تكمل عبارتها حَتّى سمعت صوت أمها مجلجلًا مما زاد في اضطرابها وتوترها، وهي تقول: «من الطّارق يا نَدَى؟».

الباب

3

الفصل الثاني

(٢٢)

فَارِسُ الأَحْلَام

سمعت صوت أمها مجلجلًا مما زاد في اضطرابها وتوترها، وهي تقول: «من الطّارق يا نَدَى؟»، همس لها بشار بصوت منخفض: «قولي لها بشار، قولي لها بشار»، لم تستجب لرغبته، فلَمّا فتحت أمّها الباب رأت بشار أمامها فانطبقت صورته على صورة أبيه في ذهنها، وقالت: «دجوار»، صحح لها ببراءة وَظَنّ أنّ نَدَى أخبرتها عنه، فقال: «نعم، بشار بن دجوار»، «هل أنت ابن دجوار صاحب المكتبة حقًا؟»، سألته خَوْلة، فأجاب: «هو أبي، وأنا أعمل فيها بعد رحيله»، رأت فيه ذات الشّمائل والصّفات، وذات المنطق والعيون، حَتّى أنّ دمعتها كادت أن تسقط، غير مصدقة أنّ الرّاحل يعود، وتمتمت في خاطرها: «المرءُ يُحْفَظُ فِيْ وِلْدِه»، واستقبلته غاية الاستقبال، فهمست ندى في أذن بشار غير مصدقة: «ما هو السّحْرُ الذّي ألقيته على أمّي؟»، قال بشار لخالته خَوْلة: «إنّ المكتبة تحتاج لمزيد من الكتب، وكنت آمل أن تسمحي لندى أن تساعدني»، أجابته بإيجاب ولم تعلم أنّه ينوي السّفر، فلمّا خرج وقالت نَدَى لأمها: «إنّه يرغب في سفرة قد تصل إلى ثلاثة

أيـام»، لـم تقبل بهـذا الطّلب، وقـررت أن تتصـل لتعتذر إليـه، أرجأت الاعتـذار حيـن تأخـر الوقت.

فلمـا وسـدت خولة رأسـها على الوسـادة رأت في منامهـا دجوار، ولمسـت منـه ذات الإخـلاص القديـم والمَحَبّة السّـابقة، واسـتيقظت وشـخصه ماثل أمامهـا، وهكذا أرجـأت الاعتذار للمـرّة الثّانيـة إكرامًا لوالـده، كَثّـفَ بشـار زيارتـه لدار خالتـه خَوْلة، ولمسـت منه خُلُـقَ أبيه وتفانيـه، حَتّـى أنّهـا لا تناديـه إلا بــ : «ولـدي بشـار»، ولـم ترغب في شـيء إلا كان لديهـا، تَوَثّقـت منـه غايـة التّوثـق، وقالـت فـي سِـرّها: « الابـن مـرآة أبيـه»، وبعـد أنّ مـرّ علـى زيارتـه الأولـى شـهر وَنَيّـف، أبلغهـا عـن مقصـده وغايتـه في السّـفر، لـم تكن لتدفـع ابنتهـا في هذه السّـفرة لـولا أنّهـا رأت فيـه صلاحًـا، وعلـى إصرار مـن نَـدَى وافقت شـريطة أنّ لا يطيلا السّـفر.

لـم تصـدق نَـدَى أنّهـا سـترحل مـع فارسـها المسـتحيل، فـارس أحلامهـا الـذّي أحبّتـه رغـم علمهـا السّـابق أنّهـا لـن تكون لـه زوجة، قنـع بشـار فـي بدايـة الأمـر بهـذه العلاقـة الأخويّـة التّـي ربطتهما، إلا أنّـه لـم يقنـع إلا بالحُـبّ، وبادلتـه ذات الشّـعور، فوضـع سـبابته على رأسـه وهـو يقـول: «لوغَيّرنـا هـذا؛ لتَغَيّـر كلّ شـيء»، أجابتـه: «أغرق فـي أحلامـك، فالحُلـم ليـس مُحَرّمًـا»، ردّ عليهـا: «ومـن قـال لـكِ

أنـي لا أحـلام بـكِ كلّ ليلـة؟»، خجلـت منـه وانطلقـت بهمـا الطّائـرة إلـى (مطـار الملكـة عليـاء الدّولـيّ) فـي الأرّدن، تَخَيّلـت نفسـها تقفز مـن الطّائـرة معـه بالباراشـوت وهمـا ممسـكان بأيـدي بعضهمـا؛ ثُـمّ يحلقـان فـي الهـواء كالطّيـور، حركت دوائر الصّمت بسـؤال: «بشـار، هـل فـي رأسـك كتـب معينـة لتشـتريها؟»، أرادت أن تعـرف خُطّـة الشّـراء التّـي فـي ذهنه، لعلّهـا تُسْـهم في تطويـر بعـض المقترحات أو تضيـف، أجابهـا: «نعـم كثيـر منهـا؛ علـى سـبيل الإيجـاز: نقـد العقل الخالـص لإيمانويـل كانت، وكتـاب السّـيفرون أو الفيلسـوف الصّغير لجـورج باركلي، وكتاب فلسـفة الأخلاق لبرتراند رسـل»، ثم سـألها، لتشـاركه خُطّة الشّـراء: «وهـل تقترحين شـيئًا لنشـتريه؟»، أخرج ورقة ليُـدَوّن ملاحظاتهـا، حيـن رآهـا مُتَحَفّـزة للحديـث، إذ قالـت: «كثيـرة هـي الكتـب التّـي تسـتهويني، ولكني أرشـح عِـدّةً منهـا: العالـم إرادة وتمثـلًا لآرثـر شـوبنهور، وكتاب مبحث فـي الفاهمـة البشـرية لديفيد هيـوم، وكتـاب دعـوة للفلسـفة لأرسْـطُو طاليس». مَـرّ الوقت سـريعًا فـي الطّائـرة، وعنـد إعـلان هبـوط الطّائـرة وربـط الأحزمة، قال بشـار بعـد أن أذاع كابتـن الطّائـرة باسـم المطـار: «إنّ هـذا المطـار سُـمِيّ بهـذا الاسـم تخليـدًا للملكـة عليـاء الحسـين»، سـألته نـدى: «ومـن هـي الملكـة عليـاء الحسـين؟»، أجابها: «هـي ملكـة الأرّدن السّـابقة،

والزّوجة الثّالثة للملك الرّاحل الحسين بن طلال، هي ابنة السّفير الأرّدنيّ السّابق في الولايات المتحدة بهاء طوقان، ولدت في القاهرة من أصل فلسطيني، من مدينة نابلس»، هبطت الطّائرة وترجلا على الأقدام، أخذت ندى ترمق في أرجاء المطار الفسيح، الذّي لم تتوقع أنّ تراه بهذه السّعة، استأذن بشار ندى لدخول دورة المياه، وما لبث أن خرج، لكنّه لم ير لها أيّ أثر، فأخذ يُفَتّش عنها ويصيح باسمها: «ندى.. ندى..».

(٢٣)

حَيَاءُ شَفِيْف

استأذن بشار ندى لدخول دورة المياه، وما لبث أن خرج، لكنّه لم ير لها أيّ أثر، فأخذ يُفَتّش عنها ويصيح باسمها: «ندى.. ندى..»، فلم ير لندائه مجيبًا، فَتَحَلّى بالتّفاؤل وقال: «لعلّها تَوَجّهت لصالة استلام الحقائب»، وقبل أنّ يتحرك من موقعه رآها تخرج من دورة المياه المقابلة فهدأت أنفاسه، وقال لها: «أقلقتني عليكِ يا ندى»، في طريقهما لاستلام الحقائب، قالت له: «هل الملكة علياء محبوبة لهذه الدّرجة؟»، فهم مرماها حين رأى انبهارها بالمطار، فقال: «بلا شكّ هي محبوبة لتفانيها في خدمة الآخرين وتواضعها، لكنّ تسمية المطار باسمها له قصة»، استلا الحقائب ونحو سَيّارة تاكسي تحركا، قالت له ندى بعد أن استقر بهما المقام في المقعد الخَلفيّ من السّيّارة: «وما هي قصتها؟»، أشار بشار للسّائق أنّ ينقلهما إلى فندقٍ دُوّنَ اسمه في بطاقة، وقال يسأل ندى: «هل تعلمين كيف تُوفّيت الملكة علياء؟»، هَزّت رأسها بالنّفي، فقال: «كانت الملك علياء تَتَجَوّل في رحلة تفقديّة للمناطق النّائية في جنوب الأرّدن، وفي أثناء تجوالها سقطت

المروحيّة وقتلت كلّ من كانوا معها في حادث مُرَوّع، حينها تم تغيير اسم مطار عمّان لاسمها تخليدًا لها».

امتَدّ بهم الطّريق، وكان في سِرّ بشار غاية يضمرها غير الغاية التّي أعلنها لندى، إذ قال لها منشرحًا: «لن أجعلكِ تنسي هذه الرّحلة، وستَذكّرينها طيلة حياتكِ»، ابتسمت فسألته: «أين تنوي الذّهاب؟»، ببساطة قال: «سنشتري كتبًا للمكتبة»، ثم أضاف: «وشيء آخر»، ابتسمت وسعت أن تكشف أسرار غايته: «وما الشّيء الآخر؟»، بتحفظ مكتوم أجابها: «ستعرفين لاحقًا»، قالها ثم صمت وفي رأسه تتصارع الأفكار، نقلا الحقائب للفندق فور الوصول، وبعد وجبة إفطار شهيّة انطلقت بهما سيّارة تاكسي أخرى إلى موقع معرض عمّان الدّوليّ للكتاب، والذّي مَرّ على افتتاحه ثلاثة أيام، أخذ بشار يرمق في أوراق استخرجها من جيبه، وهو يَتَفَكّر، قالت له ندى: «بما تُفَكّر؟»، أشار للأوراق وهو يقول: «إنّ هذه عناوين الكتب التّي طلبها الزّبائن مِنّي، وبعض مقترحات أخواتي».

دفع إليّها بورقة من الأوراق وأخذتْ تقرأ ما دَوّنَه من عناوين مرغوبة، وقرأت: «اختيار اليسا: (الأمير الصّغير لأنطوان دو سانت إكزوبيري، مئة عام من العزلة لغابرييل غارسيا ماركيز)، اختيار

لوريـن: (دسـتور الأثينيين لأرسـطو، النّـورس لجوناثان ليفنجسـتون، دوبليـر لإرلنـد لـو)، اختيـار شـيري: (أميـر الذّبـاب لويليـام غولدنغ، اسـم الـوردة لأومبيرتو إكـو)، اختيـار صديقة لوريـن (إيلينـا): «زوربا اليونانـيّ لنيكـوس كازانتزاكـي، لعبة الكـرات الزّجاجية لهرمن هيسـه، إمّـا/ أو لسـورين كيركغـارد)» ، نظـرت إليـه وهـي تقـول: «إنّهـا كتب روايـات»، أجابهـا: «إنّ الرّوايـة تُعْطّي أثرًا سـحريًا فـي النّفوس، وهي كفيلـة بتغييـر القناعـات»، بلغـا المعـرض، فاشـتريا للمكتبـة مـن كُلّ عنـوان عـدّة نسـخ، امتـلأت عرباتهمـا بالكتـب أربـع مَـرّات، ثـم بعد تنـاول وجبـة الغـداء، اسـتكملا المهمـة وتَكَفّل بشـار بشـحنها لعنوانه عبـر شـركة شـحن، وعندما حـلّ المسـاء وتناولا ما يَسُـدّ الرّمـق، هبط عليهمـا النّعـاس بثقلـه فأصبحـا كالسّـكارى لا تحملهما قـدم، وغَطّت العُيُـون فـي النّـوم، لـم يفيقـا إلا حيـن سـطع عليهما نـور الفجر.

هنـا بـدأ وقـت المفاجـأة التّـي أعَدّهـا بشـار لحبيبتـه، وهـي رحلة شـهر عسـل مختزلـة فـي يوميـن وليلـة، لعلّـه يسـتطيع أن يُغَيّـر بعـض قناعاتهـا المتمسـكة بهـا، وقـال لهـا وهـو يُمَسـد شـعرها فـي هـدوء: «نـدى قـد حَلّ الصّبـاح، ونحن على موعـد في رحلة سـياحيّة»، أفاقت وهـي تحسـب نفسـها فـي حُلـم، دقائـق حَتّـى التحقـا بفريـق سـياحيّ ضمـن شـركة مختصـة بالسّـفرات الدّاخليّة بـالأرّدن، وكانـت المحطة

الأولى بعد الإفطار النّزول إلى ساحل البحر المَيّت، بشوق عارم خلع بشار ملابسه لينطلق إلى أمواج البحر، خجلت نَدَى من تَعَرّيه إذ لم يسبق لها أنّ رأته هكذا. أصبحت خدودها كشقائق النّعمان فانزوت تجمع الأصداف والقواقع في حياء شفيف، بوثبة مدهشة قفز في البحر، وأخذ يجدف بمهارة استعراضيّة فائقة شَدّها إليه؛ وكأنّه دلفين يعشق إبهار الجماهير، ظَلّ يتفنن دون أن يسقط في القاع، لم يرق له خجلها وابتعادها عن البحر، رفع أطرافه الأربعة في الهواء بحركة صبيانيّة دفعة واحدة، وهو يقول لها متحديًا: «أصنعي هكذا إن استطعت!!»، رشقها بوابل المطر ليُحَفّزها فلم تَتَحَفّز، غاظه أنّ يرى جميع الأسر تستمتع بوقتها ما عداها، هنا رغب أن يكسر منها طوق الحياء، وهرع نحوها فحملها بين ذاعيه، وألقى بها في البحر.

(٢٤)

الطّلَاءُ الأَسْوَد

ألقى بشار بندى في البحر، فشهقت من برودة الماء، واخرجت ما ابتلعه فمها من فرط ملوحته، نهضت تجر ملابسها حين خَصّرَها الماء لتُخْفِي مفاتنها، قالت له غاضبة: «ما الذّي فعلته بي يا بشار؟»، أجابها بشيء من البرود: «لن تدركِ روعة البحر ما لم تُجَرّبيه»، رشقته بالماء غاضبة، فقال مبتسمًا: «ألا يحق لي أن أعرف حجم غضب زوجتي المستقبليّة؟»، نهرته على جرأته معها وقالت: «ومن قال لك أنّي سأتزوج مسيحيًّا؟؛ لا يعرف كيف يتعامل مع الآخرين؟»، لم يلتفت لغضبها حين رأى أنّ الماء قد أصابه، فقال لها متوعدًا: «أنتِ من بدأتِ الحرب»، فاستلقى على ظهره، وأخذ يزعنف برجليه ويرشحها الماء بمهارة، رَدّت اعتبارها حيثُ حَوّلت البحر إلى نوافير وارسو الشهيرة، وبدأت معركة ليبانتو والكرادلة بين الطّرفين، فلما رأت أنّه المنتصر بالسّلاح المائيّ أقبلت نحوه لتنتقم منه بقبضتها، ولحقت به حين هرب منها بخطّة تكتيكيّة إلى الشّاطئ.

أعادت جَرّ ملابسها التّي قلصها الماء للمرّة العاشرة، لتخفي مفاتنها المفضوحة دون جدوى، غاظها أن ينظر إليها دون حياء

وهي مخصرة القوام والمفاتن، وحينما لم تتمكن من بلوغ صيدها رشقته بالحجارة لتردعه، فلم يرَ له مهربًا إلا البحر، فقال مدمدمًا: «البحر من أمامكم والعدوّ من ورائكم، فليس لكم واللهِ إلا الصّدق والصّبر!!»، تبعته وغَطَسَ في الماء كسُلَحْفَاةٍ خضراءَ ماكرة، في أسفل الماء ارتدى زعنفة قرش كان يخفيها، اقترب منها حين توسطت البحر، ولم يظهر منه غير الزّعنفة، هنا ارتاعت من شدة الفزع والخوف وظنت أنّه الموت، في هذه اللّحظة الحاسمة ظهر لها بشار وهو يضحك، وهذا مما زاد في غيظها وحنقها منه، فلحقت به إلى الشّاطئ، ولم يجد له حلًا إلا الخضوع لها والاستسلام.

رغم توسلاته الحارة واعتذاراته المُلحّة لم تقبل منه، هنا قال لها: «سأصنع لكِ المستحيل لأرضيكِ»، فانهمك بمهارةٍ يرسم اسمها (نَدَى) بحجم كبير على السّاحل، وبحذاقة فنان ماهر صَبّ قوالب التّراب عليه ليصمم لها (قلعة النَدَى الأسطوريّة) بخطٍ ثلاثيّ الأبعاد، انتهى من الرّسم والتصميم المدهش، فصَفّقَ أعجابها بما أتقن، وقال معلقًا: «ألا تعلمين أنّ المجانين في الحُبّ يُبدعون؟، كبيكاسو، وسلفادور دالي».

أعاد اعتذاره، قائلًا لها: «لو كان هذا البحر كغيره من سائر البحور، لما ألقيتُ بكِ فيه، ولكنّه يختلف عن كلّ بحور الدّنيا»،

قالت له والفضول يدفعها: «وما يُمَيّزه عن غيره؟، إنّه مُجَرّد بحر»، أجابها قائلًا: «إنّ البحر المَيّت أقرب ما يكون لبحيرة، فهو خاليّ من الأحياء البحريّة، لذلك يمكنكِ الاستلقاء على الماء دون خوف مهاجمة القرش، ولن تجدي هنا من يلقي شباكه أو سِنّارته إلا المجانين، فملوحته تبلغ تسعة أضعاف البحر الأبيض المتوسط»، وتذكرت في الحال ملوحته غير المحتملة حيث قذفته من فمها بسرعة، ثم قال: «لا تعتبر زيارة البحر المَيّت رحلة سياحيّة فقط، بل هي رحلة علاجيّة، فمياهه مشبّعة بالصّوديوم والمغنيسيوم والبوتاسيوم والبروم»، أضاف وهو يفتح ذراعيه باتساع كبير: «ثم إنّ نسبة الأوكسجين هنا عاليّة، والهواء أكثر نقاوة، هل تعلمي يا ندى أننا الآن في أخفض بقعة على وجه الأرض؟، لقد أثبت العلماء ذلك عبر صور الأقمار الاصطناعيّة، في هذه المنطقة وقعت معركة ضارية بين الفرس والرّوم وانتصر فيها الفرس، وهذا ما يؤكده كتابكم القرآن في قوله: ﴿الم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾».

انشرح قلبها حين رأت منه استشهادًا قرآنيًا، وبدأت نوبة الغضب منها تذوب شيئًا فشيئًا، فقالت له: «وهل هناك مُمَيّزات أخرى؟»، لم يجبها إنما أمسك بيدها وقال لها: «تعالي معي لأريكِ»، رمقت

تَخَفّف النّساء والرّجال من ملابسهم وكأنّهَا المخلوقة الوحيدة التّي تتشبّث بملابسها، قال لها وهو يرمقها في هدوء: «إنكِ ستصابين بالبرد، من هذه الملابس المبتلة»، رغم شعورها بصدق حديثه إلا أنّها صمتت، وقال لها: «هل تعلمين يا ندى أنّ أشعة الشّمس هنا لا تأثر على اسمرار البشرة؟، إنّها ميّزة لا ترينّها في كلّ بقاع العالم، إلا هنا، فأضرار الشّمس مأمونة». دنى بشار من وحل أسود، وأخذ يدهن به جسده بطريقة مضحكة، تعجبت منه وأخذت تضحك مما يصنع بنفسه، فقال لها: «لماذا تضحكين؟»، أجابته وهي تجتهد في كتم ضحكتها: «لماذا تصنع بنفسك هذا الصّنيع؟»، استمر يطلي جسده العاري بالطّين الأسود ليغدو شبحًا مخيفًا مرعبًا وهي لا تتوقف عن الضّحك، قال لها: «إنّ هذه الطّينة طينة علاجيّة غنيّة بالأملاح المعدنيّة، وبها يوصي الأطباء، فهي تحفز الدّورة الدّمويّة، وتخفف آلام التّهاب العظام والمفاصل، وتعالج أمراض الجلد وتُعْطّي البشرة نعومة ومرونة ونقاوة، تستقطب لها السُيّاح من جميع أصقاع العالم»، رأت ندى أن الكثير من السُيّاح يفعلون ما يفعله بشار، وقد دفعها بقوله: «لماذا لا تُجَرّبين؟»، لم يُصَدق بشار ما رأته عيناه، حين أبصرها تنزع ملابسها.

الباب

3

الفصل الثالث

(٢٥)

وَجْبَةٌ طَعَام

ظهرت ندى لأول مَرّة لبشار بهذا النصوح، وكأنّها بجعة بيضاء تلمع تحت أشعة الشّمس، خجلت من نظرات بشار الحالمة، وتسترت عنه بالطّين الأسود، لتخفي عنه ملاحتها وجمالها، دقائق معدودة حَتّى تحَوّلت البجعة البيضاء إلى بجعةٍ سمراء تطمس ضياء جسدها عن الأنظار بالظّلمة، رأت نفسها رغم تَعَرّيها مُغَطّاة بالكامل، أخذت تضحك حين رأت نفسها ملطخة بالسّواد، فقال لها بشار: «ألم أقل لكِ إنكِ لن تنسي هذه الرّحلة؟، وستذكرينها طيلة حياتكِ»، بعد أن رأى بشار تَحَرّرها من ملابسها بمحض إرادتها، قال لها: «يقول نيتشه: (الحُرّية هي الرّغبة بأن نكون مسؤولين عن أنفسنا)»، تذكّرتْ مقولة فولتير ولم تذكّرها له، وطمرتها في نفسها، حيث يقول: (يصبح الإنسان حرًا في لحظة تمنيه لذلك)، بعد لحظات قفزا للبحر لإماطة الطّين عن الجسد، فبدت نَدَى بجعة بيضاء كسابق عهدها، فخجلت من وقوفها أمام بشار، وسرعان ما لبست ملابسها لتخفي عنه ما لم تعتد على إظهاره.

استقلا الحافلة مع الفريق وانتقلا للمطعم ليتناولا وجبة الغداء، فقال بشار لندى: «رغم مَحَبّتي للفلاسفة، إلا أنّي أتحامل عليهم في طرقهم لدُونيّة المرأة، فكثيرًا ما أجدهم يتحاملون على الجنس الأنثوي ويرشقونه بوابل الانحطاط»، استمر بشار في سرده وهي تتأمله في انشراح، إذ قال: «لأنقل لكِ بعض ما أحفظه من أقوال بعضهم، حيث يقول أبقراط، وهو المُلقب بأبي الطّب: (المرأة هي المرض)، ويقول شوبنهاور: (المرأة تبقى كطفل كلّ حياتها)، ويقول أرسطو: (المرأة كالوردة تستدرج الرّجل بأريجها لتلسعه بأشواكها)، هل أعطيكِ المزيد؟»، كانت ندى مشغولة في ارتشاف عصير الأناناس المُثَلج، لهذا قالت له: «هات ما لديك»، فأكمل من حيث انتهى: «أحفظ كذلك مقولة برنارد شو الذي يقول: (المرأة تترقب الرّجل، ولكن كما تترقب العنكبوت الذّبابة)، ويقول توما الأكويني: (المرأة إنسان ناقص التّكوين وكائن عَرَضيّ)، أما سقراط فيقول: (المرأة مصدر كلّ شَرّ)»، أجابته بعد أن أفرغت كأسها بالكامل، وقالت: «أراك انتقائي بما هو ضِدّ المرأة»، اعترض حديثها بصورة قطعيّة: «على العكس تمامًا، فأنا أتَبَنّى الدفاع عنها، ولكن...»، قاطعته قائلة: «هناك قول آخر لسقراط يقول: (المرأة أحلى هديّة قَدّمها الله إلى الإنسان)، ويقول كونفوشيوس:

(المـرأةُ أبهجُ شـيءٍ فـي الحيـاة)، ويقول أونوريـه دي بلـزاك: (المرأة أقـرب الكائنـات إلـى الكمـال، إنّها وسـط بيـن الرّجل والمـلاك)، أما شكسـبير الشّـاعر الإنجليزيّ المعـروف فيقول: (المرأة كوكب يسـتنير بـه الرّجل، ومـن غيرها يبيـت الرّجل فـي الظّلام)»، لم يـرّف له جفن، وقـال: «أنـا أعرف هـذا الصّنف من الأقـوال والآراء»، بصرامـة تجيبه: «إذًا مـا يحملـك على انتخـاب الضّـد؟!»، «إن دونيّة المـرأة فاقعة عند أعَـمّ الفلاسـفة؛ وإذا مـا قارناهـا بمـا تذكّريـن سـيغدو نقلـكِ شـواذًا، ومـا أنقلـه الأصـل»، أرتشـف مـن عصيـر البرتقال الغـارق فـي الثّلج، ثـم قـال: «هنـاك مـن يرهـا أداة للإنجاب فقـط كأرسـطو، أما سـقراط فيمثلهـا بالشّـجرة المسـمومة، ظاهرهـا أنيـق وتمـوت الطّيـور عندمـا تـأكل منهـا، أمـا مـن أحُـبّ وهـو جـان جـاك روسـو فَيُلَخّصُهـا أنّهـا لإشـباع غرائـز الرّجـل»، «هل كلّ الفلسـفة ينظـرون للمـرأة بدونيّة؟»، «أأكـد لـكِ، أنّ الأعَـمّ الأغلـب يـرى ذلـك، فإيمانويـل كانـت يـرى أنّ عقـل المـرأة لا يرقـى لعقـل الرّجـل، وهكـذا نـرى مـن يراهـا عيبًا مـن عيـوب المجتمـع كشـوبنهاور»، «فـي الحقيقة لـم أطّلـع على كلّ آرائهـم بخصـوص المـرأة، مـاذا يقـول داروين ونيتشـه في المـرأة؟»، ابتسـم، لكونهـا جـرّت النّـار إلـى قرصـه دون أن تعلـم، فقـال علـى الفـور: «إليـكِ مـا يقوله تشـارلز داروين في المـرأة، إذ يقول: (شـيء

نُحِبّه للَّعب أفضل من كلب!!)، أما نيتشه فهو يرى أنّ المرأة لا تزال في أفضل الأحوال حيوانًا كالقطط والكلاب والأبقار، وأنّهَا تتآمر مع كلّ أشكال الانحلال ضِدّ الرّجال»، ثم أضاف: «وهكذا بقيتهم مثل: هيجل، وديفيد هيوم، وفرويد، وديكارت، وجون لوك، وسواهم»، «لقد أوغرت صدري ضدهم يا بشار!!»، «إنّهَا النّظرة الدّونيّة التّي تعاني منها البشريّة على مَرّ العصور يا ندى»، هنا أقبل عليهم (سالم) ابن سائق الحافلة والذّي يعشق بشار أنْ يناديه باسمه الثّلاثي كاملًا (سَالم سَليم سُليمان)، إذ قال في وَجَل: «ماذا تصنعان هنا لقد تحرّكت الحافلة؟!».

(٢٦)

فِي الحَافِلَة

هرع بشار ومن خلفه ندى للحاق بالرّفاق، ليشاهدا سائق الحافلة ذو الشّارب الرّفيع يضغط على المُنَبّه يستحثّ المتأخّرين، حمدا الله على أنّهما لم يكونا المتأخّرين الوحيدين، صعدا الحافلة واستقرا في المقاعد ثم أزاحا السّتار عن زجاج النّافذة، فقال بشار متفاعلًا في همس: «إنّي لا أقبل أيّ ذكوريّة وبَكّت للمرأة يا ندى، فإذا وجدتُ شيئًا ما ضِدّ المرأة، وضعت يدي عليه وقلتُ: هنا داء الذّكورة!!»، نهض بشار يجلب بعض قوارير الماء التّي بجوار السّائق وعاد بقارورتين أعطى ندى واحدة وأفرغ الثّانية في جوفه دفعة واحدة، وانطلقت الحافلة ناحية (العقبة)، فتذكر العقبة الكأداء التي تمنعه من الزواج بها، وقد أضمر أن يناقشها في الأمر عَلّها تغير قناعتها، فهمس بصوت منخفض حتّى لا يسمعه أحد: «لا أخفيكِ إنّي أشكّ أنّ الإسلام يُحَرّم زواج المسلمة من الكتابيّ»، تبسّمت وقالت: «هذا أمر مقطوع في صدوره»، هزّ رأسه نافيًا: «اضطلعتُ على جملة من الآراء المناهضة، فأقنعني منطقهم»، «في كلّ دين هناك المخالف والمناهض، وهذا لا يعني

خطأ الحكم وصواب رأي الشّواذ»، «صَدّقيني يا ندى ليس دائمًا الحق مع الكثرة، فقد يلتبس الحق أثواب الباطل، فلماذا لا نعيد النّظر في الحكم؟»، ابتسمت في دلال، وقالت: «هل طمعك بي يجعلك تلوّي عنق النّص لصالحك؟»، صارحها بما يرى، قائلًا: «صحيح أنّ بي لكِ مطمع، وهو الذّي دفعني للمطالعة، إلا أني أرى المنطق لصالح المناوئين والشّواذ كما تصفينهم»، نظرت إليه وقالت: «وما يقول الشّواذ؟، اسمعني لنرى المنطق كما تقول وتزعم»، أجابها: «أولًا أقر أنّ القرآن يقول في سورة الممتحنة: ﴿**وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾، إلا أنّ دليل إباحة زواجي منكِ متأتي في استثنائه نكاح (المحصنات) من أهل الكتاب، وهذا الاستثناء يُوَلّد الطّمأنينة وإثبات أننا مؤمنون، ولا دخل للتّحريم بنا»، «لعلّك غفلت أنّ أحكام النّساء تختلف في الشّريعة الإسلاميّة عن أحكام الرّجال، والله يقول: ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**﴾»، «هذه الآية مرتبطة بقصة القدّيسة مريم، حين نذرتها أمها لخدمة الكنيسة، ولا تصح كدليل لإثبات الحرمة»، قال ذلك ثم أضاف: «إني أرى أنّ التّغلب الذّكوريّ هو الأساس في المسألة، ولعلّه من باب ذرأ المفسدة، السّليم الذّي أراه حقًا هو (حلّية الطّيبات) ذكورًا وإناثًا»، «أراك أصبحت فقيهًا يا بشار!!»، «لستُ فقيهًا،

لكني أحرك هذا»، وأشار بسبّابته لرأسه، ثم قال: «الآيات لم تحرم المسلمة على الكتابيّ، فكيف فهمنا أنّ السّكوت عن الشّيء يعني الحرمة؟، وما السّكوت إلا دليل إباحة!!»، أرادت أن تقوله شيئًا إلا أنّه سبقها بقوله: «لو كنتِ مُحَرّمة عليّ لوجدنا التّحريم في آية التّحريم، حيث يقول النّص القرآنيّ: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ**﴾، ردّت بحزم: «الآية تخاطب الذّكور لا الإناث»، «هل تريدين قول أنّ القرآن خصص الأحكام للرّجال وترك النّساء دون حكم؟»، تنفي برأسها: «هناك أحكام للنّساء مفصلة في موارد أخرى غير هذا المورد».

يواصل هديره، بقوله: «أليس هناك فرق بين المسلم والمؤمن؟»، تقطعه: «وما دخل هذا السّؤال في حديثنا؟»، «له دخل، البعض يخلط بين المَعْنَيين، فالمؤمن أوسع دلالة من المسلم، والقرآن يقول: ﴿**وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**﴾، ثم يصرح في شأن المؤمن ومنه الكتابيّ: ﴿**وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾، لكن البعض يُضَيّق الدّائرة الواسعة لدائرة ضَيّقة، فيجعل المقصود هنا المسلم وليس المؤمن، ولو كان المراد هو المسلم بالتّضييق لقال النّص: (وَلَعَبْدٌ مُسْلِمٌ)، ولم يقل: ﴿**وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ**﴾، على الإطْلاق. وهناك فرق

بَيّـن بَيْـن دلالة لفظ مؤمن عـن دلالة لفظ مسـلم، والقـرآن يصرح بهذا التّفريـق اللّفظـيّ والدّلالـيّ في غيـر موضع إذ يقـول: ﴿**إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْـلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِيـنَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ**﴾، فلمـاذا نُحَيّز الآيـات إلى ما نبتـغِ ونهـوَ؟»، هنـا أنسـت بحديثـه رغـم تصلبهـا فـي الموقـف حيث قالـت: «أرى في حديثك شـيء مـن الوجاهـة، إلا أنّه لا يرقـى لتحليل المسـلمة للكتابـيّ، ودون ذاك خَـرْط القتـاد!!»، فلمـا بلاغـا مَحطّـة البنزيـن، قالـت لتدفـع نحـوه عربـة الأمـل: «سأسـمع منـكِ فـي المَرّة المقبلـة، فـإذا وجدتـه وجيهًـا قبلـتُ بـه»، فهمـس فـي أذنهـا وهمـا يترجـلان مـن الحافلـة ليتبضعـا من السـوبر ماركـت المجـاور: «وهل سـتقبلين الـزّواج بـي حينهـا؟»، ردّت عليه مسـتعصية كالجـوزاء: «إنّ هـذا سـابق لأوانـه، ولـكلّ حـادث حديث».

(٢٧)

قَفْزَةُ الحُبّ

اشترت ندى لبشار بعض المرطبات والحلويات، وبينما هي تأكل قطعة من الشّكولاتة بدأته بالمشاكسة إذ قالت له: «أرى أنّ الحُجَة أعيتك، ولا سبيل لديك للاستدلال على إباحة الزّواج بي»، غَصّ في طعامه، ودمعت عينه، فتماسك وقال: «من قال لكِ ذلك؟»، ابتلع الطّعام، ثم أردف: «الدّليل جاهز في قوله: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**﴾، والمسلمة من الطّيبات؟»، ابتسمت وقالت: «جميل، وهل الخطاب هنا للمسلم أم للمسيحيّ؟، إنّ تخريجك جيد يا بشار رغم أنّ الآية تتحدث عن الطّعام لا الزّيجات والأنكحة!!»، ثم أضافت: «إنّ المانع والعائق قبول المسلمة بالكتابيّ لا العكس، فالمشكلة هي هل أنّ المسيحيّ من الطّعام الطّيب المُحَلل للمسلمة؟ أم لا؟».

أخذت تضحك، وظلّ وجهه مُحمَرًّا إذ قال: «إنّ ما يغيظني هو من يرى نفسه على الحق دون غيره، ولا نجاة إلا له وحده دون سواه»، بكلّ ثبات أجابت: «هذا ليس رأيي إنّ القرآن هو من يرى ذلك، إذ يقول: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن**

﴿يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ردّ على الفور: «وماذا عن موسى وعيسى وإبراهيم ويوسف ويعقوب؟!»، «إنّ هؤلاء متأخرين، يُقْبَل منهم دينهم، ولكنّ الكلام في المُتَقّدمين؟»، «هل نفهم أنّ الدّيانات السّماويّة باطلة ما خلا الإسلام؟»، «الديانات السابقة فيها تحريف، ثم إنّها جُبّت بالإسلام»، «وماذا تصنعين في المذاهب الإسلاميّة المتضاربة؟، هل فيها كلها الدّين الحق؟، أم أنّ الحق واحد لا يتجزأ؟، لا ريب أنّ دين الله لا يقبل التّعَدّد، فأيّ المذاهب هو دين الله؟ أم أنّ التّحريف نال من الإسلام هو الآخر؟!»، «لم يدخل في الإسلام التّحريف، فالاختلاف ليس في العقيدة إنّمَا في الفقه»، «وهل الاختلاف حَوْل الزّواج في الأمور العقدية أم الفقهية؟»، أجابته: «الزّواج جانب فقهيّ لا عقديّ، ولكن عليه اجماع المذاهب»، «ألا يمكن أن يجتمع النّاس على الخطأ؟»، «رُبّما، ولكنّ الاجماع من الأصول»، «وهناك من لا يقبل به أصلًا»، «مثل من؟»، «مثل الكثيرين، ولعَلّي استطيع الايجاز بكلمة واحدة حين أقول (المعتزلة)، فمثلًا يقول إبراهيم النّظّام، وهو أستاذ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة: (إنّ الإجماع ليس بحجة في الشّرع، وكذلك القياس في الأحكام الشّرعيّة لا يجوز أن يكون

حُجّـة)، ولـذا خالفـوا الإجمـاع فـي كثيـر مـن المسـائل: (كنكـران الرّجـم، والنّسـخ فـي القـرآن، وقالـوا بـأنّ دِيّـة المـرأة والرّجُـل دِيّـة واحـدة، فهـل أزيـدكِ؟».

ألقـت فـي فمهـا قطعـة شـكولاتة وقالـت: «قـل مـا بـدا لـك»، فـردّ عليهـا بقولـه: «لـن أطيـل، فقـط أقـول: إنّ المعتزلـة حكّمـوا العقـل فـي الحديـث، ولـم يحكّمـوا الحديـث فـي العقـل»، توقـف بشـار عـن كلامـه، عندمـا تكلـم المرشـد السّـياحيّ، ولـم يكـن المرشـد غيـر السّـائق الـذّي كان بارعًـا فـي السّـياقة والحديـث فـي ذات الوقـت، ولكنّـه نقـل الميكروفـون إلـى ولـده سـالم لكونـه اصطـدم بالـكلام مـع بعـض السّـيّاح المتأخريـن، فتكلـم ابنـه بالنيابـة عنـه: «بعـد دقائـق سـنبلغ البحـر الأحمـر، وتحديـدًا مدينـة العقبـة، إنّ هـذه المدينـة مـن أهـم مـدن الأرّدن علـى الإطْـلاق»، هنـا تدخـل بشـار بمـرح ليضفـي شـيئًا مـن التّفاعـل والإثـارة للجمهـور: «ولمـاذا العقبـة بهـذه الأهميّـة يـا سـالم؟»، أجابـه فـي انشـراح: «لأنّهَـا المدينـة السّـاحليّة الوحيـدة لـلأردن، وبهـا المنفـذ البحـريّ الوحيـد الـذّي يجعلهـا تَطُـلّ علـى العالـم، فهـي جسـر الرّبـط وحلقـة الوصـل بيـن قـارة آسـيا وإفريقيـا»، انطلـق الحديـث أريحيًـا إذ قـال سـالم: «فـي هـذه المدينـة يقـع مطـار الملـك حسـين الدّولـيّ، وهـي أحـد

أضلاع المثلث الذّهبيّ للسّياحة الأرّدنيّة، حيث يقرب منها كلًا من: وادي رم، والمدينة الورديّة (البتراء) والتّي هي واحدة من عجائب الدّنيا السّبع»، قال أحد السُيّاح: «بماذا تمتاز العقبة عن غيرها؟»، «قبل أن أجيبك علينا أن نعرف أنّ اسمها القديم هو إيلات كما ورد في التّوراة العبريّة، وهي منطقة جذب هواة الغوص لتميّزها بشواطئها المطلة على البحر الأحمر»، قال بشار لندى: «سأصحبك في رحلة بحريّة عبر أعماق الخليج».

فلما بلغوا العقبة وترجل الجميع، قالت ندى لبشار: «لماذا لا تقفز بالباراشوت؟»، قالتها متحمسة وهي ترى تقفز الشّبابّ من سطح مرتفع، لم يكن بشار راغبًا بذلك، لكونه يعاني من رُهاب المرتفعات، ولكنّه تحامل على نفسه تلبية رغبة حبيبته، فَلَمّا بلغ مداه وارتدى الباراشوت أجفل في مكانه وكاد أن يسقط.

الباب

4

الفصل الأول

(٢٨)

رِحْلَةُ غَوْص

ارتدى بشار الباراشوت وأجفل في مكانه وكاد أن يسقط، أخذت ندى تشجعه وتنتظر منه أن يقفز في الهواء كالطّيور، لكنّه أصيب بالدّوار والهلع، وكاد أن يستفرغ ما في بطنه، تغيّرت ألوانه، وقال في نفسه: «أين محبتكَ لندى؟، ألم تقل أنكَ ستفعل المستحيل لأجلها؟»، شاهدها تلوح له وبالكاد يراها، تراجع عن الحافة، وأخذ المدرب يهدأ من روعه، وأبلغه بمعاناته، فنصحه المدرب أن لا يقدم على القفز إلا إذا كان واثقًا، فتراجع حين أدرك ضعفه، خلع الباراشوت في حالة عجز وذعر، ورجع لندى منكسرًا، كفارس لم يؤدّي واجبة في ساحة المعركة، فقالت له ندى لتواسيه: «إنّ كلّ إنسان له نقاط ضعف، ومن لا يقر بذلك فليجرّب عدم النّوم»، ثم قالت: ﴿**وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾، وقبل أن يغادرا الموقع قالت له: «سأجرّب القفز عوضًا عنك، فهي أمنيّتي»، ثم أضافت: «يقول فولتير: (نقاط ضعف الرّجال تصنع قوة النّساء)»، قالتها ثم انطلقت ليراها تُحَلّق بالمظلة كنسر يجوب السّماء.

تمنّى أن يضمها إليه لحظة الهبوط، لكنّ هبوطها كان في نقطة بعيدة عنه، فرأى في نجاحها نجاحه، وفي سعادتها سعادته، ثم انطلاقا إلى منتزه العقبة المائيّ لتجرّبة رحلة الغطس في الماء لمشاهدة الأسماك الملوّنة والشّعاب المرجانيّة على طبيعتها تحت الماء، رأت ندى الجو معتدل الحرارة، ارتدت معدات الغوص لأول مرّة في حياتها وشعور لا يوصف يكتسيها من هذه التّجرّبة، لم تتوقع أن ترى المياه بهذا الهدوء وهذه الرّؤية الواضحة، لم تشعر بوزنها نهائيًا تحت الماء، وكأنّهَا تحوّلت فجأة لحوريّة بحر أو سمكة حقيقيّة تتحرّك بشكل ثلاثيّ الأبعاد، كان التّدرج العمقيّ مريح وسهل بالنسبة لها، شاهدت الأسماك والكائنات على حقيقتها، رأت حطام البواخر وحدائق المرجان واللّافقاريات المُنَوّعة، قالت ندى لبشار حين خروجهما: «لم أتوقع أن يكون الغطس بهذه الرّوعة».

لمحت ندى محل بيع المُثلجات فابتاعت لهما كوبين من الآيسكريم ذو طبقة مزدوجة، قالت له في سرور حين استقرا على أحد المقاعد: «هل تُصَدّق أنّي لم استشعر أنّكَ من ديانة مختلفة عني؟، أتمنى أن تذوب الشّحناء عن كلّ البشريّة»، قالتها وأخذت تلعق الآيسكريم بالملعقة، عَلّق بشار مغتبطًا: «أنا لا أخفيكِ إنّي معجب بنظرة فيلسوف التّنوير (جون لوك) الذّي ناهض التّعصب،

فلقد قرأت كتابه (رسالة في التّسامح)، الذّي يدعو فيه للقضاء على التّعصب الدّينيّ، ويؤسّس إلى (التّسامح)، حيث نادى بفصل دور الدّولة عن دور الكنيسة، ورفع عقيرته بـ (مبدأ المساواة) لكلّ الطّوائف الدّينيّة».

«هل تقصد بالطّوائف الدّينيّة كلّ الأديان المختلفة؟»، «ليس بالضّرورة أن يكون الاختلاف بين مخالفٍ وآخر، فأحيانًا يقع الخلاف بين المتآلفين من ذات الدّين، فنرى أنّ الدّين الواحد يتجزأ إلى طوائف ومذهبيات رغم اتفاقها وتمسكها بالحبل نفسه، إلا أنّ الاختلافات قائمة بينهما، فمثلًا في المسيحيّة هناك المسيحيّ البابويّ وفي قبالته المسيحيّ اللّوثريّ رغم إيمان الطّرفين بالكتاب المقدّس والمَسِيح، إلا أنّ الهُوة قائمة بين الطّرفين، فالبابويون يُصِرّون على صوابيتهم، لكونهم يَتَمَسّكون بالقرارات البابويّة والتّقاليد»، «ماهي المشكلة الحقيقيّة التّي تُحدث مثل هذه الفجوات بين الأديان والمذاهب، برأيك؟»، «أظن أنّ التّعصب هو معول الهدم بين المشتركات فضلًا عن سواها، وقد أعجبتني حكمة قرأتها لبيرتراند راسل الذّي يقول: (لن أموت أبدًا دفاعًا عن قناعاتيّ، فقد أكون مخطئًا)».

راق لندى استماتته للزّواج منها، وكأنّها الدّرة اليتيمة التّي لا مثيل لها، إذ قالت لتجذبه لذات الحديث: «لقد شططنا بعيدًا عن

حديثنا الأساس»، ابتسم حين أرجعته لصلب الموضوع وفي ذلك بغيته، فقال: «بل إننا نؤسّس فلسفيًا لمفهوم غاية في الأهميّة، وهو التّسامح الدّينيّ، أو لنقل نبذ التّعصب، فلماذا لا ننفتح على الآخر ونعطيه النَصَفَ من أنفسنا؟»، ابتسمت ورشقته بقولها: «إذًا فلماذا لا تبدأ بنفسك يا بشار أولًا؟»، أجابها بانشراح: «نعم لأبدأ بنفسيّ، أنا أرى أنّ الإسلام معتدل في الكثير من مبانيه ومرتكزاته، فمثلًا القاعدة القرآنيّة المعتدلة لديه تقول: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**﴾، هذه الآية صريحة في الأمر بالقسط والاعتدال مع المخالفين»، «وما علاقة ما تقول في زواج المسلمة بالكتابيّ؟»، «الأساس هو عدم التّعصب فيما يرتبط بنا وبالآخر، وقد راق لي رأيّ أحد المفتين وهو (الشّيخ عثمان بطيخ) الذّي أراه معتدلًا في رأيه إذ يقول في زواج المسلمة من الكتابيّ: (إنّ هذا الأمر من ضمن المصالح التّي تتغيّر بتغيّر الزّمان والمكان والبيئة)»، بعد أن أفرغ كوب الآيسكريم، قال لها: «إنّ لحظات الغروب ستبدأ، وسأقدم لكِ الآن مفاجأتي».

(٢٩)

جَوْلَةُ تَبَضُّع

ما كانت ندى لتقبل بمفاجأة بشار في لحظتها الأولى لكنّها قبلتها في اللّحظات الأخيرة، وكانت المفاجأة عبارة عن ركوب الدّراجات المائيّة والتّزحلق على الأمواج، كانت خجلة في بدايّة الأمر، لكنّهَا قدّمَت إبداعها الفريد على صفحة الماء حين انكسر حاجز الحياء، بدأ قرص الشّمس بالسّقوط غربًا وبشار منهمك بجولته المائيّة مع حبيبته ندى اللّذان أبدعا لوحة فنيّة مدهشة بالتّزلج المائيّ، ظلّ بشار يرمق منظر السّاحل البديع وندى تلتقط الصّور التّذكاريّة في وقت الغروب وكأنّ الرّومانسيّة والحنان طلتا سُحُب السّماء برشاقة فنان تشكيليّ مدهش، التّقط بشار قرص الشّمس البرتقاليّ بسبابته وإبهامه، وقال لندى: «وثقيّ صورتي»، ثم بالمثل شاركته ندى في التقاط كورة الشّمس براحتيها ووثق لها هذا المشهد الرائق، وفي حركة تدرجيّة انسكبت ألوان الغروب على سطح البحر بتشكيلة قرمزيّة متداخلة بين البرتقاليّ والأصفر، وكأنّ السّماء مصابة بالهوس الفنيّ الخرافيّ، انزلقا ناحية المجمع التّجاري ليقضيا بعض الوقت قبل وجبة العشاء المجانيّة

التّي ستكون على حساب الشّركة مع حفلة موسيقيّة سترتبها إدارة الفندق.

تدحرجت عربة التّبضع التّي يمسكها بشار وبرفقته ندى التّي بدأت تستشعر الارتياح الزّائد بقربه، وكأنّه أضحى زوجها المستقبليّ فعلًا، لم تقل نزهة التّسوق عن الأنشطة السّابقة روعة في نظر ندى، التّي كانت ترمق المحلات عن كثب، وعلى ذات النّسق كان يسير بشار، رأت ندى بدلة أنيقة راق لها أن تراها على بشار فقالت له: «سأهديك هديّة، أرجو أن لا تخيّب رغبتي في قبولها»، استعلم عن رغبتها؛ فعرضت له ما راق لها أن تراه عليه، وقبل أن يجيبها نقلها إلى محل مجاور وقال: «سأقبل عرضكِ، إذا قبلتِ عرضي بارتداء هذا»، وألقى عليها الفستان الذّي تمنّى أن يراه عليها كذلك، أعجبها ذوق بشار في اختيار الفساتين، ومع ذلك لم تجبه قبل أن تجرب الفستان على نفسها، ارتدت الفستان؛ ورأت نفسها في المرآة، فشاهدت أمامها بطلة أسطوريّة لمسلسل دراميّ سيحقق الشّهرة والنّجاح، رغم إعْجابها به إلا أنّهَا وقعت في حيرة شديدة حين رأت أنّ الفستان تواجهه مشكلتين، الأولى: كونه قصير أكثر مما ينبغي، والثانية: أنه يبرز المفاتن بشكل لا فت، إذ لم تعتد ارتداءَ مثله أمام الجمهور.

أطالت ندى البقاء في غرفة تبديل الملابس، ليس لأجل تجربة الفستان إنّما لتدرس المقايضة، ولتحسم قرار الرّفض أو القبول، نبض قلبها بشدة وهي تتخيل نفسها تخرج بهذا الفستان، زادت حيرتها حينما أرادت أن تلبيّ رغبته، وجرى في وجنتيها الدمُ حين ألهبها الحياء، وعَضّت على شفتها لعلّها تقتل الخجل الذّي وثب من أعماقها، وكأنّه تنين يحفه الدّخان من كلّ مكان، نتيجة شعورها الفطريّ، تنهدت وهي لا تتمكن من الاختيار، طرق بشار عليها الباب يستحثها على الانتهاء، فزاد ارتباكها وحياؤها، وأجابته دون تردد أنّها لم تنتهِ، وبعد إعادة التّفكير مرارًا وصلت لقرارها النّهائيّ، الذّي دعمه ذائقة المحيط، وكونها في بيئة تجهل ماهيتها السّابقة، ولا سِيّما أنّها ترغب في تقديم شيء من حر مالها هديّة لبشار الذّي يبادلها الحُبّ والإخلاص، ولن ترى أفضل مما اختارته، غَضّت النّظر عن كلّ ما يقلقها وقالت: «إنني في سفر، وللسّفر أحكامه وخصائصه».

توقع بشار منها الاعتذار، وإعلان فشل المقايضة، خرجت ندى بعد أن أخفت عن نفسها كلّ آثار التّوتر، وظهرت أمامه طبيعيّة الملامح، وقالت له بوثوق: «قبلت العرض»، لم تصدق أذنه ما سمعت، فقال لها مؤكدًا: «شرطيّ أن ترتديه اللّيلة»، أجابته دون

أن تطـرف: «بـلا شـكّ سـأرتديه وسـتراه، حين تقبـل هديتـي»، غمرته السّـعادة وهـو لا يصـدق أنّ نـدى سـتفعلها من أجلـه، وحفـظ لها هذا الموقـف الـذّي لن ينسـاه.

ارتـدى بشـار مـا اختارتـه نـدى، فـرأى نفسـه شـابًا بهـيّ الطّلعـة جـذاب المُحَيّـا وكأنّه عريـس سَـيُزَفّ لزوجته، اطالت نـدى في ارتداء الفسـتان، وحيـن عجـزت عـن ارتدائـه بالشـكل المناسـب، طلبت منه المسـاعدة فـي إغـلاق سَـحّاب الفسـتان، شـريطة أن يغمـض عينيـه حَتّـى لا يفسـد عليهـا مفاجأتهـا لـه، أغمـض بشـار عينيـه وفـي أثنـاء إغـلاق الفسـتان صرخـت نـدى لكونـه أغلقـه السّـحّاب علـى اللّحم.

(٣٠)

وَرْدَةٌ صَفْرَاء

طلبت منه المساعدة في إغلاق سَحّاب الفستان، شريطة أن يغمض عينيه حَتّى لا يفسد عليها مفاجأتها له، أغمض بشار عينيه وفي أثناء إغلاق الفستان صرخت ندى لكونه أغلقه السّحّاب على اللّحم، اعتذر بشار حين أدرك غلطته وقال: «إنّهَا المَرّة الأولى التّي أغلق فيها فستان فتاة»، قالها وهو مغمض العينين بأمانة، وعندما انتهت من ارتدائه وتأكدت من إطلالتها السّاحرة قالت له: «افتح عينيك»، لم تصدق عيناه ما رأت وقال لها وهو يشير بأصبعه نحوها: «هذه فتاة أحلاميّ التّي أرجو»، لم يرفع عيونه عنها وهي بهذا الفستان، تلونت وجنتاها كباقة ورد وبان عليها الخجل، فزاد من حسنها، رأت ندى في بشار فارس أحلامها، أما هو فكان يعيش في حلم لا ينوي النّهوض منه!

سارت معه وهي تستجمع وثوقها واتزانها، وكلّ السُّيّاح مشغولون بأنفسهم وبمن حولهم عنها، مما قَلّل حدّة التّوتر لديها، لكنّهَا مع كُلّ ذلك ظَلّت أميرة السّهرة، تصادف وقت دخولها مع بداية إيقاع العزف وافتتاح الحفلة الموسيقيّة وكأنّهَم يستقبلون

ملكة الجمال، أو عروسة ستزفّ لزوجها بعد قليل، تناولا العشاء في سرور، ثم تغير العزف ليقلب الأجواء إلى معركة صاخبة لم يرق لهما، فقررا الانزواء والانفراد بعيدًا عن هذا الضّجيج، فرغا من وجبة العشاء، وانتقلا إلى مكان آخر حيث طالعهما محل كافيه أنيق ذو طابع رومانسيّ مفعم بالهدوء؛ فتوقفا عنده، وجلسا على مقعدين متجاورين بينهما وردة صفراء وضعت بإتقان في مزهريّة زاهيّة، شمّ بشار الوردة الشّذيّة وقال: «إن هذا النّوع من الزّهور من جنس الأقحوان، له من الأنواع قرابة الأربعين، ينتشر في المناطق الاستوائيّة والمعتدلة كالصّين وشرق آسيا، تعرف باسم أقحوان زهرة الذّهب»، تناولت ندى الوردة منه لتشمها، طلب لنفسه: (بلاك كوفي وكوكيز النّوتيلا)، أما ندى فاختارت لها (سبانش لاتيه وبراوني لوتس)، رفعت عينها عن الوردة لتقع نظرتها على عيونه الحالمة، لم تخفيّ عنه روعتها هذه المرّة كما كانت تصنع، واستشعرت بقربٍ حميم نحوه، فرغبت أن تختار له حديثًا يروق له، فقالت لتشوقه إليّها أكثر: «بشار لم تحدثنِ ما رأي الفلاسفة في الزّواج؟».

راق له سؤالها فقال: «أتخطر مقولة لفيلسوفي المفضل جان جاك روسو، يقول فيها: (قبل أن أتزوج كان لدي ستة نظريات في

تربيـة الأطفـال، أمـا الآن فعنـدي سـتة أطفـال وليـس عنـدي نظريات لهـم)»، ابتسـمت ثُـمّ حثتـه طالبة منـه المزيد: «ومـاذا أيضًا؟»، ابتسـم وهـو يقـول: «مـن الطّريـف أيضًـا مـا قاله جـورج برنـارد شـو: (تقلق المـرأة علـى المسـتقبل، حَتّـى تجـد زوجًـا، ولا يقلـق الرّجـل علـى المسـتقبل إلا بعـد أن يجـد زوجتـه!)»، رغم أنّ هـذه المقولـة لم ترق لهـا، إلا أنها اسـتفادت من الشّـطر الأخيـر فيها، لتغـدو معارضة لفكرة الـزّواج، وحَتّـى تجعلـه يصـارع ويضرى فـي الدّفـاع عنه، قالـت: «ما أعرفـه أنّ الـزّواج مبغـوض لـدى الكثيـر مـن الفلاسـفة، مثـلًا يـرى آرثـر شـوبنهاور أنّ الـزّواج والحُـبّ سـببان فـي بـؤس الإنسـان؛ لأنّه لا يسـتخدم فيهمـا عقله بشـكل كافٍ، وأتذكّـر مقولة لبرناردشـو يقول فيهـا: (الرّجـال يحلمـون قبل الـزّواج، ويسـتيقظون بعـده!!)».

رأى بشـار أن نـدى شـنت هجمتهـا الشّرشـة لتَصُـدّه عـن الـزّواج منهـا، بل بأصـل فكرة الـزّواج، لهذا أخذ يُقَلّـب كُلّ فكـرة داعمة لصَدّ هجومهـا السّـافر، فقـال: «مـا وجدتـه أنّ الفلاسـفة يضبطـون مسـألة الـزّواج كباقـي المسـائل الأخـرى، فمثـلًا: يقـول فريدريـك نيتشـه: (الـزّواج التّعيـس لا ينقصـه الحُـبّ، تنقصـه الصّداقـة)، فالصّداقة بين الزّوجيـن تردم فجوة التّعاسـة، وبالمثـل يقول فولتير: (أسـاس الزّواج الصّحيـح التّفاهـم المتبـادل)»، ركلـت كـرة المنـاوأة لفكرتـه وقالت:

«أوسكار وايلد يقول: (يا للسّموات، كم يُدَمّر الزّواج الرّجُل؟، إنّه مُفسد مثل السّجائر، وأكثر كُلفة)، وتقول إليزابيث الأولى: (أفضّل أن أكون مُتَسَوّلة وعزباء من ملكة ومتزوجة)، أما الملكة فيكتوريا فتقول: (حينما أفكر في فتاة صغيرة حُرّة مبهجة، وأنظر إلى الحالة المؤلمة والموجعة التّي أمام الزّوجة الشّابّة عادة، لا يمكنك أن تنكر أنّ الزّواج هو عقوبة)».

آلمه أن تكون نظرتها للزّواج بهذه السّوداويّة، ولم يقبل أن يجادلها فيُعَمّق لدَيّها الفكرة السّلبيّة بالدفاع عنها، فاقتصر بقوله: «إنّ هناك زواجات ناجحة، ومما أذكره مقولة ونستون تشرشل الذّي يقول: (إنّ أحد أهم وأعظم انجازاتي هي مقدرتي على اقناع زوجتي وَحَثّها على الزّواج بي)»، استبد بهما التّعب، وانتقلا لغرفتهما، فلمّا دخلاها أجفلت حين رأت أمامها أنّ السّرير مزدوج!!، وكأنّ الغرفة أعدّت لاستقبال زوجين، قالت ندى لبشار معترضة في غضب: «هل تظن أني سأبيت معك على سرير واحد؟».

الباب

4

الفصل الثاني

(٣١)

الحُلْمُ الوَلِيْد

استبد بهما التّعب، وانتقلا لغرفتهما، فلمّا دخلاها أجفلت حين رأت أمامها أنّ السّرير مزدوج!!، وكأنّ الغرفة أعدّت لاستقبال زوجين، قالت ندى لبشار معترضة في غضب: «هل تظن أني سأبيت معك على سرير واحد؟»، اعتذر لها وقال: «أنا لم أطلب منهم هذا، ولكنّهم ظَنّوا أنّنا أزواجًا، وهذا ما يظهر لكلّ من يرانا؟»، بهدوء أخذ منشفته واستلقى بها على الأرض وهو يقول: «أنا سأبيت هنا، ولكِ السّرير بأكمله»، وقعت في حيرة لم ترَ لها مثيلًا، فقالت: «هل تظن أني سأقبل أن تبيت مستلقيًا على الأرض، وأنا فوق الوثير؟»، لم يحرك ساكنًا، فلما لم تستطع أن تضيف شيئًا أمام هذا المأزق، قالت له في هدوء: «بشار، أريد أن أخبرك بشيء هام»، لم يكن ليستجيب لها لولا كلمتها الجادة، إذ قالت له: «تعال لأحدثك»، أقبل بشار نحوها في صمت وقالت له: «أنا أقبل بك زوجًا لي».

صفعته كلمتها التّي لم يتوقعها، ولم يصدّق ما يسمعه منها، ثم أضافت: «هل تذكر الخُفّاش الأسود الذّي أفزعني؟»، «خُفّاش المكتبة؟، أتذكّره وأتذكّر قلادة اللّؤلؤ التّي فقدتها أيضًا»، «حين هجم عليّ الخُفّاش وكنتُ خائفة، رأيتك تدافع عني بكلّ إخلاص، وبكلّ ما أوتيت من قوّة، حَتّى أبعدت عني المكروه، منذ ذلك الوقت تمنيّتك لي زوجًا، فكلّ ما أتمناه وأطمع به رجل يحميني وأثق برجولته»، أراد أن يتكلم لكنه صمت حين رأى شفتيها تتحركان، فقالت له: «لكن زواجنا شبه مستحيل»، هنا قال: «كان الأمل بكِ مفقودًا يا ندى، وكنت أظُنّ أنّ الأمر مستحيلًا، أما وإنكِ تقبلين بي زوجًا لكِ، فشبه المستحيل عندي أضعف من المستحيل»، «لا تَظُن أنّ الأمر بهذه السّهولة، وعليك أن تعرف أنّ المسلمة لا تكون زوجة لمسيحيّ، رغم أننا نقبل بهذا الزّواج»، «إذًا ماذا نصنع؟»، «إننا سنواجه الجميع، وأنا في حيرة، فديني لا يقبل بهذا الزّواج رغم قناعتي بك»، واصلت سرد مخاوفها: «ثم إنّ أمّي، وخالي، وكلّ المجتمع يرفض هذا الزّواج بالمطلق»، أضاف حَتّى لا يفقد الأمل والحُلم الوليد: «أنا أقبل أن أصنع المستحيل لأجلكِ، هل تريدين...؟»، وضعت سبابتها أمام

شفتيه حَتّى لا يتكلم، ثم قالت وقد سحبتها بهدوء لتضعها ناحية رأسها وقالت: «علينا أن نُغَيّر هذا».

ابتسم حين تذكّر أنّهَا ذات العبارة التّي يكررها، فقال لها: «أنا بصدّق لا أرى أنّ الإسلام يحرّمكِ عليّ، إذ لا دليل على الحُرّمة في رأيي، وأنا أطالبكِ ولو بدليل واحد، أو بموقف نبويّ واحد يُحَرّم فيه المسلمة على الكتابيّ»، «بصراحة، أنا لا أملك دليلًا، ولا أعرف موقفًا نبويًّا بالتّحريم، كُلّ ما أعرفه أنّه اجماع العلماء، وأنّ الأعراف الإسلاميّة تراه مُحَرّمًا»، «إذًا فأنتِ لا تمتلكين دليل الحُرمة، مما يعني أنّ الأصل مباح»، «عدم الوجدان لا يعني عدم الوجود، وعدم العلم بالدليل ليس علمًا بالعدم»، «إذًا لنطالب بإحضار دليل الحُرمة»، «وماذا إذا أحضر لكَ أحدهم دليلًا؟، هل ستتركني؟»، ردّ عليها قائلًا: «بصراحة، لا أستطيع ترككِ، فمحبّتكِ في قلبي متشبّثة»، «لماذا لا تتجرد من عواطفك حين تقوم بالبحث؟»، «أنا رغم محبّتي لكِ متجرد، الحق إنّي أرى أن المسألة مباحة، وإن لم تكن مشاعة، ولو كان هناك دليل لاستطاع العلماء إرغام الخصوم من المفكرين المخالفين لهم».

لـم تـرد عليـه، وفـي زوبعـة تفكيرهـا قالـت: «أنـا أفكـر كيـف سـأواجه أمّـي؟، هـذا كلّ مـا يهمنـي يـا بشـار»، ضـرب بيـده علـى صـدره، وقـال: «أتـركِ المسـألة لـي، أنـا واثـق أنـي سـأتمكن مـن أقناعهـا»، هَـزّت رأسـها نافيّـة، وقالـت: «إنـك لا تعـرف أمّـي، هـل تعلـم أن أبـاك طلـب يـد أمّـي للـزّواج وكانـا يحبـان بعضهمـا مـن قبـل فرفضـت؟!، رغـم أنّهَـا أرملـة وبأمَـسّ الحاجـة إليـه!!»، «مـن أبـي وأمـكِ؟!»، «بلـى، أخبرتنـي أمّـي بمعاناتهـا، حيـن عرفـت أنّـك ابـن دجـوار»، أدهشـته بمـا قالـت، ثـم أكمـل فـي هـدوء: «علينـا أن نبـذل قصـار جهدنـا، وليكتـب الـرّبّ إرادتـه».

(٣٢)

جَوْلَةٌ سِيَاحِيَّة

حرصت ندى على الاتصال بولدتها بين الحين والآخر، لطمأنتها أنّهما بخير، أغمضت ندى عيونها وقد أوكلت أمرها لخالق المقادير والأقدار، حين علمت أنّ هذا السّفر لم يكن ليَتُمّ لولا أنّ السّماء حركت أصابعها فيه. تسلّلت خيوط الشّمس الذّهبيّة عليهما، وزقزقت حولهما الأطيار، وهما في نومٍ عميق كأنّهما أموات وهم رقود، وحين ارتفعت الشّمس وكادت وجبة الإفطار أن تطير، استيقظا ليتداركا البوفيه المفتوح الذّي كان مدفوع الأجر على حساب الشّركة. بعد الانتهاء من احتساء الحليب وتناول الطّعام، انطلاقا لاستكمال أنشطة العقبة، التّي لا تزال تخبأ لهما الكثير من المفاجآت، البداية كانت في (متحف آثار العقبة)، وهو أحد أروقة قصر (الشّريف حسين) مؤسّس الدّولة الهاشميّة، الذّي يقع على خليج العقبة في الشّاطئ الشّمالي بالقرب من قلعة العقبة التّاريخيّة.

التّقط سالم لهما صورة تذكاريّة مع ساريّة العلم الشّهيرة وهو يجيب بشار عن سؤال طرحه، إذ قال له: «إن ارتفاع هذه السّاريّة

يبلغ ١٣٠ مترًا». الجَوْلة الأولى كانت تفقد القطع الأثريّة في (قاعة أيلا)، ثم التّقطوا صورًا لـ (قطعة سيدة العقبة الأثريّة)، التّي يرجع عهدها للعصر البرونزيّ، سُرّت ندى برؤية (آية الكرسيّ) المزخرفة بالخط الكوفيّ المتقن، وقد تلتها بصوت مسموع، التّقط بشار بعدسته بعض النّقود الذّهبيّة التّي تعود إلى زمن الفاطميّين، ثُمّ أشار بأصبعه إلى مسكوكات أخرى وقال: «يبدو أنّ المغاربة مروا من هنا أثناء رحلات الحَجّ». رفع سالم بيده قطعة فنيّة وقال: «إنّهَا مصنوعة من الفَخّار، وهي من الحرف القديمة في العقبة»، استكملوا بقيّة أروقة قصر (الشّريف حسين)، ليلتحقوا بعدها بـ (متحف الأحياء البحريّة).

فلمّا وصلوا المتحف قال بشار محذرًا لندى حين رأى أنياب القرش: «احترسيّ القرش من وراءكِ!!»، أخذ يضحك عندما نجح في أفزاعها من القرش للمرّة الثّانية، غرقوا بعد ذلك في مشاهدة مختلف الأسماك، دهشت ندى حين جَرّبت لمس نجوم البحر والأسماك والشّعب المرجانيّة، قال لهما سالم مبتسمًا: «إنّ هذه المسابح تعمل باللّمس»، تسابق كلًا من ندى وبشار في إطعام الأسماك وهما في غاية الأنس والسّرور، ثم أسرعا لتلبيّة دعوة

سالم حين قال لهما: «لقد بدأ عرض الفيلم الوثائقيّ»، كان الفيلم مثيرًا يتحدث عن مراحل تطور الأحياء البحريّة باللّغة الإنجليزيّة.

ابتهجت ندى وسُرّ بشار حين لاحظ سرورها، عرض عليها قضاء بعض الوقت في جلسة وديّة على الشّاطئ لاحتساء القهوة وتناول الجوز واللّوز والفستق، بعدما فرغا من تناول وجبة غداء دسمة، وبينما بشار يروي لها بعض مغامراته الطّريفة جاء لهما أبو سالم ليقول لهما: «لقد تأجل ميعاد إقلاع الطّائرة»، غضب بشار، وأخذ يناقشه بقلق خاصّة وأنّه لم يتبق معه إلا القليل من المال، فقال أبو سالم: «إنّ الأمر خارج عن إرادتنا، ومع ذلك سنتكفّل بنفقتكما إذ لا ذنب لكما»، سُرّ بشار، الذّي رغب في إطالة وقت سفرته معها، بعدها أجرت ندى اتصالًا لأمها تخبرها بهذا التّغيير المفاجئ؛ فَلَمّا تقبّلت ذلك قفز بشار من شِدّة سعادته، وقال: «ليت الطّائرة لا تطير، ليتني أبقى معكِ طيلة الحياة».

أسرها هذا الموقف منه، وشعرت بقربٍ حميم معه، وقاسمته الارتياح، هنا سمع بشار صوت صراخ سالم الذّي اصطدم بعمود حديدي أثناء نظره إلى إغراق طائرة من نوع تراي ستار في خليج العقبة لجذب الغواصين والسياح، لبى بشار نجدته بشهامة، فإذا بالدّم يفور من رأسه كعين نابعة، خلع بشار قميصه ليوقف منه

الـدّم دون جـدوى، اقتلـع حينهـا بنطالـه وَشَـدّ بـه علـى رأسـه وطلبـا الإسـعاف، علـى عجـل تـم إسـعاف سـالم، وبعـد برهـة جـاء أبـوه ليطمئنهمـا علـى سـلامته وهـو يقول ليبـدد عنهمـا المخـاوف والقلق: «لقـد اسـميته سـالمًا حيـن سـلمه اللـه فـي الماضـيّ، وهـا قـد سـلمه الآن فـلا تقلقـوا عليـه»، خجلـت نـدى مـن النّظـر إلـى بشـار الـذّي أضحى شـبه عـارٍ، لكنّها سُـرّت بشـهامته ونبل موقفـه، وراق أن يكون لهـا زوجًـا، عرضـت عليـه الرّكـوب فـي أحـد القـوارب، فوافـق على طلبهـا وحيـن انتهـت بهم الجَوّلـة، ذهبا للغرفـة ليرمقهما ذات السّـرير المـزدوج مَـرّة أخرى.

(٣٣)

تَذَاكِرُ العَوْدَة

نظرت ندى إلى السّرير المزدوج الذّي تراه حُلمًا لم يحن أوانه بعد، تناولت منشفتها وقالت لبشار: «أعطني منشفتك»، أعطاها المنشفة، ورفعت غطاء السّرير، وأخذت ترسم بالمنشفتين حدود الدّولتين، وقالت: «لكُلّ واحد منا دولته وحدوده، وعليك الإمضاء على اتفاقيّة سايكس- بيكو!!»، ابتسم لطرافة تصرفها، وباتا بغطاء واحد، في منتصف اللّيل اشتدّ ببشار البرد، فسحب الغطاء لناحيته دون وعي، وتخطى جسده المنطقة الحدوديّة الفاصلة بينهما، هنا استشعر دفأ جسدها البض ونعومته، حَتّى كاد أن يهوي في الهاويّة، إلا أنّه تذكّر العهود والمواثيق التّي قطعها لخالته خَوْلة بحفظ ندى من كلّ شَرّ، وقد أقسم لها بشرفه، وكأنّه طالب رهبنة يتلو عهده أمام الهيكل، ويردد ميثاقه وراء رئيس الدّير، نهض هنا كالملدوغ حين أدرك أنّه لن يقاوم المنزلق، وخرج من الغرفة وقرر المَبِيّت في العراء، وهو يتمتم:

بِالجَدِّ لا بِالمَساعي يُبلَغُ الشَرَفُ تَمشي الجُدودُ بِأَقوامٍ وَإِن وَقَفوا

وقف كأنّه نُصْب تذكاري للجندي المجهول، مكتوب في جزئه

المركـزيّ: «اسـمك مجهـول، ومأثرتـك خالـدة»، تذكّـر هنا كلمـة أثيرة حفظهـا عـن آرثـر شـوبنهاور: «الشّـرف لا يجـب أن يكتسـب، بل يجب فقـط ألا يُفقـد»، هنـا أطلّـت عليـه ندى حيـن افتقدتـه وظنـت أنّ عارضًا عرضـه، فأخـذت تُفَتّـش عنه وتسـتبين علته، رأتـه يغرق فـي تفكير عميق وهـو يعـد النّجـوم، قالـت له حيـن رأتـه: «ماذا بـك يـا بشـار؟»، أجابها: «لقـد اخترقـت حـدود الدّولتين ولمسـتكِ خطـأ، وبيني وبيـن أمك عهد معهـود، وواجبـي الحفـاظ عليـكِ، وحَتّـى لا يقـع منـي ما أخافـه عليك سـأبيت هنا».

استشـعرت محبتـه وأمانته التّي قَلّ نظيرها، وتـلألأ في عينيها، فمالت بجسـدها نحـوه وقالـت فـي عاطفـة حانية وهـي تعد معـه النّجـوم: «هل تعلـم يـا بشـار أنـي أجـد فيـك حنـان الأبـوة؟»، تذكّر يتمهـا الـذّي عرج بـه ليتمـه وقـال: «إذا كنـتِ فقدتـي حنـان الأب، فإنـي فقدت حنـان الأم والأب معًـا»، ثم قال في نفسـه: «سـوى حنـان خالتي ماريـا التّي أعطتني كلّ مـا فـي قلبهـا»، رقـت لـه وليتمـه فأخذته إلـى الفـراش بعـد أن ثبتت الحـدود وجعلتـه يقـرأ معهـا (آيـة الكرسـي)، وقالت لـه: «إنّهَـا تحفظنا مـن كلّ شـر»، نامـت نـدى إلا أنّ بشـار ظَـلّ سـاهرًا فـي الفـراش يتهجد بقـراءة الكتـاب المقـدس حَتّـى انفلـق عمـود الفجـر، حينهـا قـال بشـار لحبيبتـه: «لقـد نسـينا أن نشـتري هدايا السّـفر، فهـل نعـود دون هديّة؟»، شـكرته علـى تنبيهـه لهـا، فقـال: «إننـي أكـره أن أعود بـلا هديّـة لخالتي

ماريا وشقيقاتي»، قالت له على الفور: «هل هن شقيقاتك بالفعل؟»، أجابها: «إنهن بمثابة الشّقيقات لي، ولقد ألفنا الأخوة»، «إني أحسدك يا بشار على عائلتك، فأنا ليس لي أحد سوى أمّي»، هبطت منها دمعه فمسحها بأطراف أنامله برفق، وانطلقا يجدان السّير للتّبضع وانتخاب تحفة السّفر.

وبينما هما في شغل شغال لانتخاب ما يحسن انتخابه، فقدت ندى حبيبها بشار، وأخذت تتلفت يمينًا وشمالًا، وتذكّرت ما قرأته من زوابع الاختطاف في الأسفار فجاست في دمائها خيول الخوف، وشعرت بغربة قاتلة، وتمتمت: «ماذا سأصنع لو حلّ بك مكروه؟»، لم تنتهِ من حالة الفزع هذه حَتّى لمحت يدًا تلوح لها من بعيد، حدقت النّظر، فإذا بها ترى يد بشار بالقرب من مدخل أحد المكتبات، فدنت منه واحتضنته إليّها، فقال لها مستغربًا: «ماذا بكِ يا ندى؟»، هنا أخذت تجهش بالبكاء وهي تتشبّث به، وقالت له من بين الدّموع: «لقد خفت عليك حين فقدتك».

مَسَدَ شعرها واستشعر منها الحنان الذّي فقده طيلة حياته، ثم سحبها للدّاخل ليريها كتاب (الأرغانون الجديد، لفرانسيس بيكون)، نظرت لضآلة حجم الكتاب والفرحة الغامرة التي في عينيه، فقالت له: «ما هذا الكتاب الصّغير؟»، ابتسم وقال لها في زهو: «إنّه ثورة نقديّة ضِدّ المنطق الأرسطي، بما يشمل من قياس واستقراء، هذا الكتاب

يُعَدّ الجزء الثّاني من مشروع بيكون الذّي اسماه بـ(الإحياء العظيم)، وكان يرجو أن يؤسّس له بستة كتب لم يفسح له الموت إتمامها».

«هل يرى بيكون أنّ منهجية أرسطو قديمة عفى عليها الزّمان؟»، سألته وهي ترمق الصفحات، فأجابها: «بالضّبط، فعقل بيكون متفاعل مع حركة العلوم الحديثة، وهو ناقم على ماضيّ علوم القرون الوسطى، التّي يشبعها نقدًا وتجريحًا». سألته ندى قائلة: «وما الكتاب الآخر الذّي بين يديك؟»، رفعه إليها فقرأت: «الرّسائل الفلسفيّة، لفولتير»، وعلق بشار قائلًا: «إنّ فولتير تعرض للكثير من المضايقات الفرنسيّة، والعجيب وصول هذا الكتاب لأيدينا، فلقد أحرقت منه نسخ كثيرة وحجب عن الأنظار، وقد وصف بأنّه مخالف لتعاليم الدّين ويدعو للزّندقة والإلحاد»، «شوقتني لقراءته يا بشار»، «كَتَبَ فولتير هذا الكتاب في إنجلترا إبان إقامته فيها، وهذه الرّسائل التّنويريّة تعكس أجواء المقارنة بين المجتمع الفرنسيّ والمجتمع الإنجليزيّ، حيث تطرق فيه إلى الكنيسة والكهنوت، كما تحدث فيه عن النّظام الحاكم والبرلمان». اشترت ندى ثلاثة كتب، فلما تأخر بهما الوقت رجعا ليستقبلهما أبو سالم غاضبًا: «أين كنتما؟، ولماذا هاتفكما مغلق؟، لقد عثرنا لكما على تذاكر، هيا قبل أن تغادر الطّائرة».

(٣٤)

قَارُوْرَةُ مِسْك

وصلا المطار في الوقت المناسب، واستقرا في المقاعد وعقدا الأحزمة، فَلَمّا حَلّقت الطّائرة في الفضاء وسارت بهما في خط مستقيم بين السّحب، استخرج بشار من حقيبته كتابًا، شَدّ عنوانه عيون ندى، مكتوب عليه: (آلامُ فيرتر، ليوهان جوته)، قالت له ندى مبتسمة: «أراك تقتني الرّوايات؟»، أجابها في هدوء: «إنّها إحدى روائع الأدب، فيها يتحدث جوته عن الشّاب (فيرتر) الذّي يحلم بالسّكينة والسّعادة، حيث يسكن في ريف ألمانيّ لم يتلوّث بما يُلوّثه التّمدن والحضارة، وبينما هو مغمور بمحبة أهل القريّة تتبدى له فتاة يافعة يأسره جمالها تدعى (شارولت)، يقع في حُبّها، إلا أنّه يكتشف أنّها تُحِبّ شابًا غيره، وهذا الشّاب يبادلها ذات الشّعور، وعَمّا قريب يحين موعد الزّفاف»، «ثُمّ ماذا يا بشار؟»، يخفي الكتاب في حقيبته، ويقول: «أنا لست حكواتيًّا كما تعلمين، وبإمكانكِ قراءتها لتتعرفي على ما سيفعله (فيرتر) ليبلغ غاياته ويقطف حُبّه»، يغمض بشار عيونه فيغفوا للحظات، تستخرج هنا ندى جهازها اللّوحي لتقرأ كتاب: (أحاديّة الآخر اللّغويّة، لجاك

دريـدا)، لـم يهنـأ بشـار فـي نومـه حيـن صادفهـم مطـبّ هوائـيّ أفاقه مـن غفوته.

قـال كابتـن الطّائـرة: «شُـدّوا الأحزمـة، فإنّنـا مقبلـون علـى عِـدّة مَطَبّـات هوائيّـة»، لـم يَتُـمّ حديثـه حَتّـى ارتجـت بهـم الطّائـرة وكأنّهَا سـتقع؛ سـيطر الطيّـار على طائرتـه، كما سـيطر الوجوم علـى الرّكاب، تلاحقـت بهـم المطبّـات المفزعـة، ثم هبطـت بهـم الطّائرة فـي مطبّ جديدة، أمسـكت نـدى بهلع يد بشـار، وقال لهـا: «لا تخافي، رحلات الطّيـران معرضـة للمطبـات الهوائيّـة، مثـل تعـرض السّـيّارة لمطبـات الطّريـق»، بخـوف أجابته: «إنّني أخشـى السّـقوط يا بشـار، ولا أرغب أنّ نختـم حياتنـا كالملكـة علياء الحسـين»، طمأنهـا بالسّـلامة رغـم تعاقـب المطبّـات، لـم يكـن بشـار يشـفق علـى نـدى بقـدر مـا أشـفق علـى صبـيّ يغـرق فـي فوبيـا الطّيـران حَـدّ النّخـاع، حيـث أثـار هلعه الجلبـة والتـفّ إليـه جميع الـرّكاب، واحتـواه ثلاثة مـن طاقـم الطّيّارة لتهدئتـه دون جـدوى، عشـر دقائق مـرّت كحلقة رعـب، بعدها هدأت العاصفـة واسـتقرت بهـم الطّائرة.

ابتسـم بشـار حيـن أعلـن المـلاح أنّ الطّائـرة تقترب مـن الهبوط، قـال وهو يشـير إلى كتابيه: (رسـالة فـي اللّاهـوت والسّياسـة، لباروخ سـبينوزا)، وكتـاب: (روح الشّـرائع، لمونتسـكيو): «لـم يحالفنـي

الحَـظّ للقـراءة والاطـلاع»، اعتـذر بشـار من نـدى وقـت ترجلهما من الطّائـرة، وقـال: «تمنيّـت أن يكـون ختـام سـفرنا هذا قارورة مسـك»، رَدّت عليـه لتبـدد وهمـه: «كان الختـام مسـكًا يـا بشـار، لكننـي أخاف المطبّـات الهوائيّـة منـذ طفولتـي». هنـا أَلَـمَّ ببشـار حزن شـديد، حين أدرك أنّ أيـام رحلتـه السّـعيدة انتهـت، وقـال فـي حـزن: «أنا فـي غاية الألـم يـا نـدى مـن عودتنـا»، استشـعرت مـا يخالجـه، وقالـت: «هـل روايـة جوتـه تبعث علـى الحـزن لهذا الحـدّ؟، إننـي رغـم الصّعوبات أستشـعر بالأمل».

سُـرّ الجميـع بالهدايـا كمـا سُـرّ الزّبائـن بالكتـب الجديـدة التّـي زينـت المكتبـة، بعـد أسـبوع تناهى لمسـمع بشـار نبـأ وفاة عم اليسـا، ممـا جعلهـا تلتحـق بأمها ميراي فـي بعلبك، لـم ينقضِ ذلك الأسـبوع إلا برحيـل خالتـه ماريـا التّـي التحقت بأمـه ماتيلـدا، هنا أطبـق الحُزن عليـه كُلّ أيامـه، حاولـت نـدى أن تخفـف عنـه آلامـه، وعبثًـا فعلـت، حَتّـى رأى خالتـه ماريا فـي رؤيا جميلة بـددت عنه أحزانـه حيث قالت لـه: «تمنيّـت أن أراك متزوجًـا قبـل رحيلـي»، حركـت هـذه الكلمـات رغبتـه بالـزّواج من نـدى، هنا أبـدى لخالته خَوْلـة رغبته بهـا، فأجابته: «إنّ هـذا الـزّواج صعـب الحصـول، والدّيـن لا يسـمح بـه»، ضاقـت علـى بشـار الأرض برحبهـا وتوقفـت بـه عقـارب الزّمـن، وهـو يـرى

أخفاق أمنياته وتحطم أحلامه، هنا تداركت خَوْلة معقبة: «إلا أنني لن أقف أمام ما تريدان، وهذا شأنكما»، سُرّت ندى من رَدّ أمها الأخير وقررا إتمام الفكرة ليتحقق لهما الحُلم، رتب بشار لهذا الزّواج سرًا بعد أن افتتح مكتبتين إحداها في بعلبك بإدارة اليسا، والأخرى في عمّان بإدارة لورين التّي تزوجت بصاحبه سالم، أما المكتبة الأصل فأسندها لشيري، التّي خطبها أحد أقاربها، بعد ذاك حَلّقت الطّائرة من جديد بالعريسين إلى تونس ليفتتح المكتبة الرّابعة بإدارته، وهناك أعلانا الزّواج وتحقق لهما ما أرادا، قالت ندى بعد أشهر، وهي تَتَحَسّس انتفاخ بطنها: «ألم أقل لكّ أنّني أستشعر الأمل، وإنّ الأحلام تتحقق يا بشار، وإن طال بنا المدى».

تمت

عبد العزيز آل زايد

١٤/ ١١/ ١٤٤١هـ

٥/ يوليو/ ٢٠٢٠م

الفهرس

الباب الأول

الفصل الأول ٧

(١) غَزَالَةُ المُرُوْج ٩

(٢) زَائِرَةُ الحُمَّى ١٣

(٣) جُرْحٌ وَدَوَاء ١٧

الفصل الثاني ٢١

(٤) هَدِيّةٌ أَخَوِيّة ٢٣

(٥) ضِيَافَةُ القَمَر ٢٧

(٦) مَوَاسِمُ الأَفْرَاح ٣١

الفصل الثالث ٣٥

(٧) حَدِيْثٌ رَائِق..... ٣٧

(٨) فَرَاشَةُ الكُتُب..... ٤١

(٩) حَبْلُ النّجَاة..... ٤٥

الباب الثاني

الفصل الاول ٤٩

(١٠) لِقَاءٌ آخَر..... ٥١

(١١) الوَرَقَةُ المَنْسِيَّة..... ٥٥

(١٢) ضِيَاءُ شَمْعَة ٥٩

الفصل الثاني ٦٣

(١٣) رِيَاحٌ بَارِدَة..... ٦٥

(١٤) أَزْمَةُ الجِيَاع ٦٩

(١٥) البَابُ المُغْلَق..... ٧٣

الفصل الثالث ٧٧

(١٦) طَرِيْقُ الثَّرَاء..... ٧٩

(١٧) البَابُ السِّرِيّ ٨٣

(١٨) مَشَاعِرُ قَلْب ٨٧

الباب الثالث

الفصل الأول ٩١

(١٩) الطَّابِقُ السُّفْلِيّ..... ٩٣

(٢٠) قِلَادَةُ اللُّؤْلُؤ ٩٧

(٢١) زِيَارَةٌ مُفَاجِأَة ١٠١

الفصل الثاني ١٠٥

(٢٢) فَارِسُ الأَحْلَام ١٠٧

(٢٣) حَيَاءٌ شَفِيْف ١١١

(٢٤) الطّلَاءُ الأَسْوَد..... ١١٥

الفصل الثالث ١١٩

(٢٥) وَجْبَةٌ طَعَام ١٢١

(٢٦) فِي الحَافِلَة ١٢٥

(٢٧) قَفْزَةُ الحُبّ ١٢٩

الباب الرابع

الفصل الأول ١٣٣

(٢٨) رِحْلَةُ غَوْص ١٣٥

(٢٩) جَوْلَةُ تَبَضُّع ١٣٩

(٣٠) وَرْدَةٌ صَفْرَاء ١٤٣

الفصل الثاني ١٤٧

(٣١) الحُلْمُ الوَلِيْد ١٤٩

(٣٢) جَوْلَةٌ سِيَاحِيَّة ١٥٣

(٣٣) تَذَاكِرُ العَوْدَة ١٥٧

(٣٤) قَارُوْرَةُ مِسْك ١٦١